

جلبرت هايت

هجرة الأفكار

ترجمة

شفيق اسعد فريد

جلبرت هايت

هجرة الأفكار

ترجمة
شفيق اسعد فريد

الكتاب: هجرة الأفكار

الكاتب: جلبرت هايت

ترجمة: شفيق اسعد فريد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

هايت ، جلبرت

هجرة الأفكار / جلبرت هايت، ترجمة: شفيق اسعد فريد ،

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٩١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٠٦١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ٢٢٠٦٦ / ٢٠٢٠

هجرة الأفكار



مقدمة المترجم

أجمع الباحثون في علوم الحضارة على أن الحضارة في جوهرها ليست سوى حركة موصولة للأفكار والآراء وشتى ضروب الخبرة .. فالأفكار والآراء وشتى ضروب الخبرة تنتقل من فرد إلى فرد، ومن شعب إلى شعب، وتهاجر هجرة موصولة محرزة في كل هجرة من هجراتها العديدة المتكررة نجاحا جديدا وتقدما موصولا، ثم تظل تحرز في كل يوم تقدما جديدا إلى أن تبلغ المرحلة القوية الملموسة التي تجعل منها حضارة من الحضارات المرموقة.

وحتى هذه الحضارات لا تقف عند مرحلة معينة من المراحل مهما بلغت من الدقة والكمال، لان هجرة الأفكار تلك التي لا تتوقف ولا تتلكأ، تحمل معها في أثناء ترحلها بذورا جديدة لأفكار جديدة ومن ثم لحضارات جديدة. وتظل تلك الحضارات تنتقل من مكان إلى آخر وتهاجر من شعب إلى آخر حاملة معها بذرة تقدمها ومقومات نهضتنا، إلى أن تتناولها عقول أكثر تقدما وأكثر تحررا، فتجعل منها ثورة جديدة في عالم الحضارة.

واغرب ما في هجرة الأفكار تلك، أنها تتخذ في كثير من الأحيان مسالك متعرجة وسبى ملتوية غير واضحة المعالم. ولكن هذه المسالك المتعرجة وتلك السبل الملتوية كلها تسير في خط لا يتعارض مع خط

سير التاريخ نفسه .. فالتاريخ في أوسع معانيه ليس سور تسجيل عملي لتطور هجرة الأفكار، وليس سوى تسجيل لتقدم خبرة الإنسان. ولكن التاريخ في ذاته لا يروى قصة هجرة الأفكار بطريقة منتظمة موصولة الحلقات، وإنما يجمع شتات عديد من الحضارات نشأت في أمكنة معينة وأزمنة خاصة، محاولا الرابط بينها لاستخلاص الرابطة التي تجمع بينها، أو محاولا إرجاعها إلى أصولها الأولى ومصادرها البكر.

ومن ثم كانت دراسة التاريخ – من ناحية تطور الأفكار – متقوصة غير كاملة، لان التاريخ مهما توسع في البحث والتنقيب لا يستطيع أن يرد جميع الأفكار بعد تطورها وتجددها، إلى مصادرها البكر الأولى. فهذه الأفكار إذ تهاجر من فرد إلى آخر، أو من شعب إلى آخر لا تتخذ أشكالا خاصة محددة مقننة، وإنما تعتروها أثناء هجرتها تغيرات سلبية وايجابية، وتطرأ عليها تطورات قد تكون تقدمية وقد تكون انتكاسية.

ولكن هذه التغيرات وتلك التطورات، سواء كانت تقدمية أم انعكاسية، لا تتقيد بأوضاع معينة أو بأساليب خاصة، ولا ترتهن بمقومات عنصرية أو جغرافية أو بيولوجية؛ وإنما تنطلق انطلاقا بمقومات عنصرية أو جغرافية أو بيولوجية؛ وإنما تنطلق انطلاقا حرا لا تحده حدود ولا تقيده قيود.

ولكن هجرة الأفكار تلك رغم ما تمتاز به من انطلاق حر وحركة موصولة متجددة، تحدد معالم التاريخ وترسم له خط سيره، لان هذه

الأفكار هي التي تصنع الحضارة، ومن ثم تصنع التاريخ.

وهذا الكتاب الذي أقدمه إلى قراء اللغة العربية في مصر وشتى الدول العربية الشقيقة، يتناول بالدراسة الواعية مرحلة من مراحل هجرة الأفكار. وهو على الرغم من ضالة حجمه وقلة عدد صفحاته، يحوى من الأفكار الفذة الجريئة ما لا تتسع آلاف من الصفحات لتناولها بالتفصيل. فالمؤلف – وهو أستاذ جامعي متخصص – أراد أن يتناول بالبحث رؤوس موضوعات فحسب؛ أما التفصيلات فقد ضرب عنها صفحا خشية أن تتشعب الموضوعات وتفلت خيوطها من بين أيدي القارئ.

ولكن رؤوس الموضوعات هذه التي تناولها مؤلف هذا الكتاب، تفي بالغرض المقصود منها وتحقق الغاية المنشودة، لان دراسة هجرة الأفكار – كموضوع بحث – تحتاج أول ما تحتاج إلى عرض سريع للمبادئ الأساسية والأسس الفعلية التي تقوم عليها الأفكار، كما تحتاج إلى تعريف عام سريع ببعض الأفكار الإبداعية التي انتقلت أو هاجرت من مكان إلى آخر.

واعتقد أنني لست في حاجة إلى تعريف القراء بمؤلف هذا الكتاب (جلبرت هايت) فهو أشهر من أن يعرف، كما أن مؤلفاته ومحاضراته العديدة تكشف عن اتجاهه. وحسبنا في هذا الصدد أن نشير إلى كتابه "فن التعليم" الذي نشر باللغة العربية منذ بضعة شهور واحدث ثورة في أوساط التعليم.

وأخيرا أمل أن يجد القراء في كتاب "هجرة الأفكار" الذي أقدمه إليهم فخورا به، ما يشبع ظمأهم إلى المعرفة.

والله اسأل أن يهدينا جميعا سواء السبيل.

يوليو سنة ١٩٥٥

شفيق اسعد فريد

مقدمة المؤلف

هناك ثلاث موضوعات تستأثر باهتمامنا كلما انصرفنا إلى التفكير ... فقد نفكر في البشر، وقد نفكر في العالم المادي، كما قد نفكر في الله .. وكل ما نتعلمه في المدارس والجامعات، وكل ما نفعله عن طريق التفكير المستمر ذي الغرض المحدد، إنما يهدف إلى فهم واحد من موضوعات التفكير هذه، أو إلى تبين العلاقة القائمة بينها.

وللعلماء طرق عديدة مختلفة للتفكير في العالم المادي. أما علماء الدين والصوفيون والشعراء فقد انصرفوا بتفكيرهم إلى الله فرونا طويلة. بينما استخدمت الفنون والنظم الأخرى، من الموسيقي إلى علم الاجتماع كوسائل للتفكير وتقرير الحقائق المتعلقة بالبشر.

إلا انه من الصعب حتى على العلماء أن يحددوا حقل كل نظام بدقة متناهية، وما زالت هذه الصعوبة أعظم في دراسات العواطف. فنحن نعلم إن دراستنا لعمل أدبي رائع مثل جحيم دانتي أو هاملت لشكسبير تنقلنا إلى دراسة في علمي النفس والتاريخ – بل الواقع أنها تنقلنا إلى مراحل ومناطق متعددة مختلفة من التاريخ – كما تنقلنا إلى مجال الجمال ومناطق كثيرة مختلفة تكمن فيها بعض الحقيقة. ونحن في الجامعات، قد نجعل مقار الكليات في أبنية منفصلة، ونركز الإدارات في مكاتب مختلفة، بيد انه لا توجد جدران ولا فواصل لا ينفذ منها الصوت

في مملكة التفكير إذ أن الأفكار غير قابلة للتقسيم حتى ول ضمها غلاف كتاب.

وهذا هو السبب، أو احد الأسباب، التي جعلت دراسات البشر في حالة دائمة من المد والجزر: تتمدد ثم تنكمش وتغزو إحداها مناطق الأخرى، مكونة حقائق جديدة عن أغراضها ووسائلها، ومبرزة أوصافا جديدة لمادة موضوعها .. إن البشرية نفسها تتغير باستمرار، ولذلك فليس هناك من سبيل للوقوف على الحقائق الهامة المتصلة بها إلا باستخدام طريقة مرنة للبحث. ومن ثم علينا ألا ننفر من هذه المرونة أو نقاومها، وإنما ينبغي أن نكيف أنفسنا تبعا لها:لان الإنسان يختلف عن جميع سكان هذا الكوكب الآخرين تقريبا من حيث انه كان قابلا للتكيف بشكل هائل ... كما أن شخصيتنا وحياتنا الاجتماعية إن هي إلا تغيير مستمر.

وسنتحدث هنا عن إحدى الدراسات البشرية، وتعتبر من أصعب هذه الدراسات وأكثرها أهمية. وسنعالج الحقل الذي تهتم به هذه الدراسة متسائلين: هل يمكن أن يتسع هذا الحقل ويعاد تحديده حتى يمكن الحصول على مزيد من المعلومات الأكثر ملائمة والمعلومات الهامة، وحتى يستطيع الباحثون في هذا الحقل أن يكتشفوا طرقا عديدة للإجابة على المشاكل التي طالما حيرتهم؟

إن هذه الدراسة هي التاريخ.

والتاريخ بأوسع معانيه هو دراسة الماضي، وبمعناه المألوف هو دراسة نشاط بين الإنسان في الماضي. ولقد أصبحنا في الأعوام الأخيرة أكثر إدراكا لأهمية التاريخ ومجاله الواسع، وبدأنا نفطن، بدون إرادتنا تقريبا، إلى الجانب الكبير الذي يشغله من حياتنا والى تأثيره الحيوي في مصائرنا. فان قراراتنا السياسية وفنوننا وحرفنا وتقدمنا الصناعي والزراعي وحياتنا الخاصة وأدياننا، وكل هؤلاء ميعا تتكيف تبعا للتاريخ ولا يمكن فهمها بغير فهم التاريخ.

إننا نعلم جيدا ما للتاريخ من أهمية، ولكن كيف نعرف التاريخ؟ أننا نقول التاريخ هو دراسة إحداث الماضي ... وهذا صحيح، ولكن أية إحداث هي المقصودة بالدراسة؟ ففي اللحظة العابرة التي نقرا فيها هذا السؤال وقعت ملايين الملايين من الأحداث في العالم. وفي طرقة العين ستحدث ملايين أخرى وهكذا دواليك. فهل هذه الأحداث هي المادة الخام لدراسة التاريخ؟ إن أكثر هذه الأحداث لا تسجل حتى في الصحف، ومن المحقق أن احدها لن تكون له أية أهمية تذكر وقت حدوثه ولكنه لا يلبث أن يبرز بعد عشر سنوات أو خمسين سنة مبرهنا على أهميته العظمى في حياة الألوف من بني الإنسان باعتباره حادثا تاريخيا حقيقيا .. فكيف يمكن للمؤرخ أن يختار مادته؟ توجد دائما حقائق لا عد لها ولا حصر .. إنها كثيفة كثافة رمال البحر، ومن ثم فإنني حين أري أحيانا زملائي المشتغلين بالأبحاث التاريخية وهم يخطون ببطء

بين تلال الحقائق المسجلة المتنقلة المتزايدة، يخيل إلى أنني اسمعهم يبكون حينما يرون هذه الكميات الضخمة من الرمال.

ما زال أمامنا سؤال سنفكر فيه وهو. ماذا يعالج التاريخ؟ ما هي الأحداث الهامة في الماضي، وفي الحاضر الذي لا يلبث أن يتحول إلى ماض بلا انقطاع؟ ما هي الظاهرة التاريخية الحقة التي تستحق التسجيل والتحليل. إن مهمة المؤرخ هي فهم الجنس البشري عن طريق ماضيه .. فما هي جوانب الماضي التي تساعده على فهم الجنس البشري فهما أتم؟

إن الجزء الأكبر من التاريخ لا يدور حول الأفراد وإنما يدور جول جماعات من الناس، فهو إما إن يتحدث عن جماعات وطنية (كالرومان والصينيين والاسبانيين) أو جماعات دينية واجتماعية (مثل الكويكرز وزراع فرجينيا) أو جماعات من أنواع أخرى (مصل الماسون الأحرار والرواد). وإذا تحدث عن الأفراد فإنما بالقدر الذي يستلزمه ما أبدوه من نشاط يتعلق بالجماعات. مثال ذلك، إذا أردنا إن نتعلم تاريخ الشعب الأمريكي فإننا نصادف في طريقنا رجالا عظماء، ولكن معظم دراستنا تتركز في الأمريكيين كجماعة وفي علاقاتهم بالجماعات الأخرى. وكما ندرس قصة الفتح المادي للقارة، كذا وصف التغييرات السياسية والنظام الاجتماعي لمواطني الولايات المتحدة، فانه يجب علينا أن ندرس أيضا قصة انفصال المستعمرات الأمريكية عن الإمبراطورية البريطانية، كذا اتصال الأمريكيين بالجماعتين الأخريين، الهنود الحمر والزنوج

الإفريقيين، وتدفق الجماعات الأخرى مثل الايرلنديين والسويديين والصينيين وهلم جرا على جماعة الأمريكيين الموجودة، والعلاقات بين الولايات المتحدة كوحدة والجماعات الأخرى الموجودة في القارة – كندا وكوبا وكولومبيا والأرجنتين والاتحاد المختلف الأشكال بين الولايات المتحدة وأكثر الجماعات السياسية قوة في العالم – البريطانيون والألمان والروس وشعوب الشرق الأقصى.

هذا، في اعتقادي، هو ما يجب إن يعترف به عموما باعتباره الموضوع الرئيسي لدراسة التاريخ. ولما كان المؤرخ يبحث العلاقات بين جماعات البشر، فمن واجبنا أن نتساءل أي نوع من علاقات الجماعات هو الذي يهم المؤرخ.

إن الإجابة العامة على هذا السؤال هي أن المؤرخ يدرس العلاقات السياسية أو العلاقات السياسية والاجتماعية التي ينظر إليها أساسا من زاوية القوة. فلقد كانت القوة الأمريكية ثورة ناضجة من حيث أنها أتاحت لسكان المستعمرات أن يحطموا حلقة اتصال القوة بينهم وبين بريطانيا العظمى والاستئثار بالقوة لحكم أنفسهم .. ولقد كانت العلاقات بين الأمريكيين والهنود والزنوج، في أساسها، علاقات القاهر والمقهور والسيد والمسود. وفي كثير من تاريخ الأمريكيين حقب طويلة يعبر عنها بألفاظ الكفاح من اجل القوة – بين الأحزاب السياسية المتنافسة، وبين رأس المال والعمل، وبين الأعمال والحكومة، وبين الصناعة والزراعة؛ بينما

توجد تواريخ لأوربا قلما يبدو أن شيئا حدث فيها اللهم إلا الصراع من اجل الملك والحروب والثورات، وكلها انتقالات للقوة من جماعة لأخرى.

فهل هذا هو التاريخ كله أو أكثره؟ لو أننا اخترنا فقط الحقائق التي تصور النضال الذي نشب بين جماعات البشر من اجل القوة وحللناها، فهل نحصل على وصف كاف للماضي؟ هل نستطيع إن نفهم حالتنا الحاضرة باستعراضها على اعتبار أنها نتيجة النضال الدائم من اجل القوة؟ هل التاريخ سجل للمعارك والحروب؟ وهل الأساس فيما وصل إليه الجنس البشري وأصبح عليه من شدة التعقيد، هو المنافسة والحقد المشترك؟

إننا إذ نلقي هذا السؤال لا نلبث إن ندرك إن الإجابة عليه لا يمكن أن تكون "نعم".

ففي خلال نصف القرن الماضي مرت علينا مغامرتان أطلق عليهما اسم: الحربان العالميتان (ولو أن كثيرا من سكان العالم قد يظنون أن إطلاقنا هذا الاسم فيه مبالغة). لقد كانتا حربين عظيمتين اقترنتا بالتدمير وقتل فيهما كثيرون، ومع ذلك فان سكان العالم الآن أكثر منهم في أي وقت مضي: إن عدد هؤلاء السكان يتزايد في كل دقيقة وكل ثانية. كما أن مستوى الحياة لم ينخفض بسبب هاتين الحربين، ولكنه اخذ في الارتفاع لان الأوبئة والأمراض المعدية لم تعد تنتشر، فضلا عن أن نسبة موت الأطفال أخذة في الانخفاض، كما أن مساحة الرقعة الزراعية أخذة في التزايد، والطرقات العادية وكذا طرق النقل تتضاعف بسرعة كبيرة،

والإنتاج العالمي ينمو باطراد، والمدارس التي تفتح أكثر جدا من التي تغلق، ونسبة التعلم أخذة في الارتفاع ف جميع الدول تقريبا، والكتب تتدفق خارجة من المطابع في جميع أنحاء العالم. والمخترعات الجديدة تكتشف باستمرار ثم تنتج وتوزع .. إن جميع هذه الحقائق لا يمكن أن توصف بأنها نتيجة الحرب أو المنافسات بين الجماعات الوطنية ... فلابد إذن من أن هناك بعض جوانب هامة من الماضي لا يمكن إن تشرح بعبارات مثل النضال من اجل القوة السياسية والاجتماعية. لابد إذن من أن هناك نوعا آخر من العلاقة بين الجماعات التي تتكون منها البشرية.

* * *

سيقول لنا بعض المؤرخين أن التفسير الأكثر أهمية اقتصادي أكثر منه سياسي .. سيقولون أن التاريخ سجل يبين كيف انتزعت إحدى الطبقات الثروة من طبقة أخرى، وكيف أن التعديلات التي أدخلت على طرق الإنتاج والتوزيع غيرت الهيكل الاجتماعي للجماعات الكبيرة والعالم جميعا، وكيف تبادلت الشعوب المختلفة السلع والخدمات، وبذلك أثرت واستغلت إحداها الأخرى .. من المحقق أن هذا القول صحيح إلى درجة هامة، فان سلسلة الأحداث العظمى – كسقوط الإمبراطورية الرومانية وانحطاط أوربا الغربية – لا يمكن فهمها فهما كاملا ما لم تحلل جوانبها الاقتصادية.

ومع ذلكن فإننا نعلم أن التفسير الاقتصادي للتاريخ غير كاف أيضا .. فان تطبيق الوسائل العلمية غير المناسبة على النشاط البشري الذي ينطوي على العاطفة والإرادة، جعل الاقتصاديين يقدمون لنا صورة مزيفة جزئيا للعلاقات بين الجماعات. ومن ثم فإننا نستطيع، بأعظم قدر من الانحراف فقط، أن تفسر حدثا هاما مثل الحروب الصليبية أو تاريخ حياة نابليون ونفوذه عن طريق الاعتبارات الاقتصادية.

* * *

كلا، لابد أن هناك وسيلة أخرى لتسجيل التاريخ .. لابد من أن هناك تفسيرا آخر – لا يهدف إلى أن يحل محل التاريخ السياسي والاجتماعي، أو التاريخ الاقتصادي، وإنما يكملهما، ويملأهما ويجعلهما حقيقيين .. ومن المحتمل انه يجب ألا يكون تفسيرا علميا يعالج الناس كما لو كانوا أدوات أو قوى جامدة، وإنما يكون تفسيرا إنسانيا يصف بإسهاب كيف يتصرف الناس ككائنات من مادة وروح.

وأرى انه يحسن بنا أن نفكر في الشعوب والقبائل والجماعات الاجتماعية بل والأجناس، ليس فقط باعتبارها متنافسات أو متعاونات في الميدان الاقتصادي، ولكن أيضا باعتبارها تلاميذ ومجرسين.

وفي رأيي أن العلاقة التربوية بأوسع معانيها تعتبر من العلاقات الرئيسية بين الجماعات البشرية. ورأي انه يمكن أيضا كتابة تاريخ العالم كتاريخ لانتقال الأفكار من إحدى الجماعات البشرية إلى جماعة أخرى

.. فإذا رؤى إعادة كتابة التاريخ، فيجب أن يكتب ليلقي الضوء على كثير من مناطق الماضي التي يساء فهمها الآن كما – ولو أن ذلك ليس من واجب المؤرخ – يجب أن يزود الكثيرين بما يحتاجون إليه من الثقة بالعقل البشري ومستقبل البشر.

والآن، دعنا نتأمل التاريخ من وجهة النظر هذه، لنرى إن كان ذلك سيساعدنا على فهم المزيد من مصائر الإنسانية.

السياسة والاجتماع

توجد في التاريخ الحديث نسبيا سلسلة واحدة من الأحداث البارزة التي يحسن أن تفهم على أنها تربوية أكثر منها سياسية أو اقتصادية، فان شعبا تعداده ٣٠ مليونا تعمد أن يدخل المدارس، ولم يلبث أن تعلم في غضون سنوات قليلة كيف يمارس عددا لا يحصى من الفنون، ويحصل على عدد لا يحصى أيضا من الأفكار التي لم يعالجها من قبل ... تلك هي اليابان.

ففي عام ١٨٦٨ اقسم إمبراطور اليابان أمام الشعب – مرسوم القسم – بان يغير الشعب ويصلحه، وكان من الواضح أن هذا إعلان عن سياسة لحزب هام بين الوزراء، فقد كانت العبارة الأخيرة في هذا القسم كما يلي:

"سنبحث عن المعرفة في جميع أنحاء العالم".

ومنذ ذلك الحين وسياسة اليابانيين تنحصر في تعلم كل ما يمكن تعلمه من الشعوب الأخرى، ولهذا الأمر مغزاه الكبير نظرا لان اليابانيين شعب يعتز بنفسه ويكره أن يضع نفسه في مركز من يعتمد على غيره كما يفعل التلميذ حيال الأستاذ، وكذلك ظل هذا الشعب لا يثق بالأجانب بل ويكرههم قرونا عديدة. ولكنهم قوام أقوياء الإرادة، ما أن حزموا أمرهم

على هذه السياسة حتى نفذوها. أما الذين قرروا هذه السياسة فكانوا قليلي العدد، إلا أنهم كانوا فعلا من صناع التاريخ.

وكان احد هؤلاء الأشخاص "هيرويومي اتيو" ... فعندما كان شابا صغيرا استطاع أن يقنع سيده الإقطاعي "كوشو" بان يهجر السهام والأقواس التقليدية ويستخدم البنادق والمدافع، وبعد ذلك بفترة قصيرة، وبتشجيع سيده، ارتكب وأربعة آخرين جريمة يعاقب القانون من مرتكبها بالإعدام، ولكنهم رحلوا خارج البلاد، فقضوا سنة يدرسون في لندن، وعند عودتهم أصبحوا زعماء الحزب التقدمي في اليابان. وفي عام ١٨٨٢ عهد إلى "ايتو" بإعداد دستور لبلاده التي لم يكن لها حتى ذلك الحين دستور، وكانت تعيش فيها يشبه فوضى العصور الوسطى التي تمزقها الحروب الأهلية وتخمدها الديكتاتورية ... ولقد اصطحب "ايتو" معه عددا كبيرا من الموظفين، وطاف معهم بالدول الأوروبية، وكان يقابل الشخصيات البارزة ويدرس مختلف نظم الحكومات الدستورية ... وبعد سبعة أعوام، أي في سنة ١٨٨٩، وبعد كثير من المناقشات والقوانين التمهيدية، اصدر الإمبراطور دستور اليابان الجديد، وكان مأخوذا من دستور بافاريا. ولقد استمع عشرات من النبلاء والموظفين لخطاب الإمبراطور، وكانوا جميعا يرتدون الزى الأوروبي الرسمي – فيما عدا واحد فقط هو الأمير "شيمادزو اوف ساتسوما"، الذي صفف شعره على النمط القديم، وارتدى زى القرون الوسطى القديم الذي ظل جميع

السادة اليابانيين يرتدونه قرونا طويلة ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا عنه في مدى سنوات قليلة، إذ أن التاريخ يتحرك بسرعة أكثر عن طريق التعليم منه عن طريق الحرب.

وفي خلال هذه الحقبة من الزمان حدثت تغييرات ثورية أخرى مماثلة في اليابان، وكانت جميعها نتيجة الدراسة خارج البلاد، فألغى نظام الإقطاع القديم، ونسى الناس الرتب والألقاب القديمة، وأنشئ نظام جديد لوراثة الأمراء والمراكيز والكونتات والفيكونتات والبارونات على غرار النظام الأوربي، وفي عام ١٨٧١ ألغى استعمال التقويم الصيني المعقد غير الدقيق، وأعلن رسميا استخدام التقويم الغربي الرسمي، وحتى ذلك الحين كانت النقود اليابانية شبيهة بنقود أوربا في القرون الوسطي: كانت أربع أنواع من العملة الذهبية في عام ١٨٦٨، ونوعين من العملة الفضية، كما كنت هناك أنواع أخرى من العملة الورقية التي أصدرت في عام ١٦٠٠، ولقد وجدت العملة اليابانية بعد ذلك في جميع أنحاء اليابان، كما سمح لأول رجال الأعمال الذين رخص لهم بدخول اليابان باستنزاف جميع الذهب الموجود في البلاد تقريبا. وفي عام ١٨٧٢ أنشئ بنك اليابان، وبعد سنوات قليلة توطد مركز العملة اليابانية. وقد أنشئ بنك اليابان على غرار بنك بلجيكا.

وبنفس الطريقة انشأ اليابانيون بحريتهم وجيشهم، فأوفدوا أولا بعثة إلى أوربا لدراسة تنظيم وتدريب قوات الدفاع في ذلك الحين. فلما عاد

أعضاء هذه البعثة إلى بلادهم أقاموا المنشئات الأرضية: مراسي السفن الرئيسية والترسانات ومدارس التدريب ... وهلم جرا. وبعدئذ استخدمت اليابان مدربين أجانب: بعثة بحرية انجليزية للأسطول البحري، وبعثة عسكرية بروسية (برئاسة الجنرال ميكل) للجيش. وبعد سنوات قليلة فقط أصبحت البحرية على درجة من الكفاية أتاحت لها تحطيم الأسطول الصيني، كما هزم الجيش المكون من الفلاحين والعمال قوة رهيبة من رجال القبائل المتمردة بعد حرب أهلية طاحنة. أما تاريخ الجيش والبحرية اليابانيين بعد هذا فمعروف لنا.

إن اليابانيين لم يسافروا إلى خارج بلادهم لمجرد التعلم. فقد جلبوا – طبقا لمرسوم القسم – ما لا يقل عن ٥٠٠٠ مدرس ومدرسة من الخارج من بينهم ١٢٠٠ من الأمريكيين (كانوا يطلقون عليهم أولا اسم ياتوي "أي الأجنبي المستأجر" وفيما بعدن أي عند ما استحقوا التكريم أطلقوا عليهم أو ياتوي "أي الأجانب المستأجرون الأجلاء". ويذكر احدهم: مستر"و.ا. جريفيس" كيف كان من الغريب على هؤلاء المدرسين والمدرسات الأجانب أن يعلموا شبابا كان يتلهف على المعرفة ويتقبل كل ما يمكن أن يلقي عليه من معلومات بلهفة لا حد لها. ثم يمضون – أي المدرسين والأجانب – بعد ذلك عائدين إلى منازلهم مخترقين شوارع ما زالت تحمل طابع القرون الوسطى الشبيهة بالمقابر، ولقد ذكر "جريفيس" أن ممن يستحقون التكريم لما أدوه من خدمات

رائعة في اليابان "باميلي" أخصائي المناجم و"برنتون" أخصائي هندسة الموانى والمنائر و"كبنكنج" أخصائي في المترولوجيا وغيرهم كثير.

بالطبع من سخف الرأي أن نقول إن كل هذا التعليم انتشر في اليابان بسرعة البرق وبغير إعداد. ففي أوائل عام ١٧٤١ أمر "شوجان يوشيميون" اثنين من الطلاب بان يتعلموا اللغة الهولندية (فقد كان الهولنديون هم الشعب الأوربي الوحيد الذي يسمح له بزيارة اليابان في ذلك الحين)، وفي عام ١٧٧١ حصل طبيب ياباني اسمه "سوجينا" على كتيب ألماني – هولندي في التشريح، وراح يختبر ما فيه من حقا\ق بمراقبة تشريح جثة احد الموتى، ثم ترجم هذا الكتيب ونشره. وبدأت دراسة الرسم والجغرافيا وعلم الفلك الأوربي في نفس الوقت تقريبا، ولكن هذا كله لم يكن إلا تمهيدا نسبيا للثورة التعليمية الكبرى التي حدثت في عام ١٨٦٠ وما تلاه.

إن القصة كلها تدعو لأشد الدهشة، بل انه ليدهشنا أن نعرف أن الثورة التعليمية لم تحدث مرة واحدة في تاريخ اليابان وإنما حدثت مرتين ... فقبل ذلك بأعوام طويلة، وفي العصور المظلمة، كان اليابانيون قبيلة منغولية اندفعت (مثل هنود أمريكا) شرقا بحثا عن وطن، فوجدوه في الجزر اليابانية التي غزوها وزرعوها، فلما ازداد عددهم وأمنهم قرروا أن يتحضروا، فقد كانوا متاخمين للإمبراطورية الصينية ذات الحضارة العظيمة، وفي عام ٦٤٥ اقتبسوا كثيرا من هذه الحضارة بغير أن يصبحوا

أسرى لها. ومن الصينيين تعلم اليابانيون – وادخلوا في مجتمعهم – الإدارة المركزية، والبوذية كدين أسمى، والكتابة المؤسسة على الحروف الصينية، ومبادئ فنونهم الجميلة التي لم تكن تعدو الفن الصيني الجميل مبسطا، وكثير من مظاهر الحضارة الأخرى.

ثم حدثت هذه الثورة مرة ثالثة. فبعد أن هزمت الولايات المتحدة اليابان عسكريا وقلمت قوتها الاقتصادية، احتلت البلاد عددا ن السنوات. فماذا كان أهم عمل اتخذ وكان له أعظم التأثير في المستقبل؟ اهو الغزو العسكري أم السيادة الاقتصادية؟ أم هل سيثبت أن أهم عمل اتخذ هو التعليم الذي تم خلال هذه السنوات؟

هذا إذن هو احد الأمثلة على انتقال الأفكار من جماعة لأخرى، والتأثيرات التاريخية الهائلة التي يمكن أ تتوفر لهذه الحركة .. بالطبع إن النظر إلى التاريخ بهذه الطريقة من شانه أن يثير متاعب خاصة تتعلق به. مثال ذلك أننا نريد أن نعلم كيف تم انتقال الأفكار إلى عقول اليابانيين، ولماذا بدئ بهذا الانتقال، وما هي الدوافع التي شجعت رجالا مثل "ايتو" و"سوجيتا" وغيرهم من الزعماء على المساهمة في الحركة، وماذا كانت علاقتهم ببقية سكان بلادهم؟ كذلك نريد أن نعرف أسباب الاختلاف، مثال ذلك لماذا اختلفت طريقة التعليم في اليابان عنها في جارتها الصين؟ هذا ما يجب أن نفكر فيه فيما سيجيء من حديث.

* * *

هناك أمثلة عديدة لحركة انتقال الأفكار هذه باعتبارها قوة تاريخية هامة. وتعتبر قصة تركيا مثلا من هذه الأمثلة.

عندما دخل الأتراك إلى التاريخ الحديث في القرون الوسطى كانوا جماعة صغيرة من الرحل يتحركون غربا من قلب آسيا. وكانوا ممتلئين قوة ونشاطا، وهاجموا الإمبراطورية الرومانية الشرقية بعناد سنوات طويلة. واستطاعوا أن يستولوا عليها في النهاية. وكاليابانيين ظل الأتراك شعبا من شعوب القرون الوسطى إلى عهد قريب، بل إن بعض صفات القرون الوسطى ما زالت سائدة بينهم حتى الآن. ولكن ما إن زالت الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩١٨، حتى قرر الأتراك – أو بعبارة أدق جماعة الأتراك التي كانت في الحكم – أن تتعلم من الشعوب الأوربية، وان تحول تركيا إلى شعب عصري غربي. وفي غضون عشر سنوات قصيرة، أي فيما بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٤ أدخلت الحروف الرومانية في تركيا (لم يطبع كتاب باللغة العربية بعد عام ١٩٢٨) وأنشئت الجامعات والمدارس في المقاطعات ووسع الموجود منها كما استخدم نظام لقياس بالمتر وألغى نظام تعدد الزوجات، ومنحت النساء حق التصويت، وضع قانون مدني جديد على غرار القانون السويسري، كما أصبحت اللغة الانجليزية (لا العربية أو الفارسية أو الفرنسية) هي اللغة الثانية، وألغيت الألقاب كلقب باشا، كما ألغى لبس الطربوش وحلت القبعة محله.

ويمكن قياس النتائج الهائلة لهذين المشروعين في اليابان وتركيا

بمقارنة هذين الشعبين بغيرهما من الجماعات القوية في الشرقيين الأوسط والأقصى ... فلنفرض أن جزيرة جاوه المكتظة بالسكان أو بورما الغنية علمت شعوبها بالطريقة نفسها التي علم اليابانيون بها أنفسهم، أو لنفرض إن ملايين الشرقيين قرروا أن يتعلموا من الغرب بنفس الطريقة التي اتبعها الأتراك، فهل هناك من يشك في أن تاريخ لعالم كان سيختلف اختلافا أساسيا عما هو عليه الآن، وبخاصة في الثلاثين السنة الأخيرة وفي السبعين عاما القادمة؟

وثمة حالة تاريخية مماثلة، ولكنها أكثر أهمية، أحدثها التعليم في مرحلة تاريخية مبكرة، وتلك هي الحركة الثقافية التي بدأت في روما القديمة حوالي عام ٢٥٠ قبل الميلاد.

فالرومان – كالأتراك واليابانيين، ظهروا في التاريخ لأول مرة كقوم بسطاء شجعان محافظين غير مثقفين لا يرجي منهم أي نفع .. كانوا فلاحين تجمعوا حول عدد قليل من المدن في سهل خصب، واختلطوا (إذا صحت الأساطير) بالخارجين على القانون والرجال الذين لا خلاق لهم، وسيطر عليهم "الاتروسكان، اللامعون بعض الوقت، وهم جنس أعلى حضارة. كان من المتوقع أن يظل الرومان مربوطين إلى حقولهم لعدة أجيال، والتاريخ يمر من فوق رؤوسهم مثلما تتغير الفصول، ولكن حافزا غامضا غير قابل للتحليل دفعهم إلى الخروج من هذا النطاق الضيق، فاخذوا ينمون وينمون، وتعلموا، وكيفوا أنفسهم، حتى أصبحوا

غزاة العالم المتمدين والمدافعين عه. ولقد كانت للرومانيين ميزات عديدة أهلتهم لان يكونوا حكاما. كانوا يؤمنون بالقانون لا بالإرادة الاستبدادية – وكانوا يؤمنون بتهذيب الذات أكثر من اهتمامهم بالتعبير عن الذات. كانوا علماء تكنولوجيا ومنشئ طرق ومهندسين ومصممي مدن، ولقد كان الرومان هم الذين حولوا – بنظم ريهم الهائلة – منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط من أحراش وصحاري إلى بلاد كلها حدائق وكروم وحقول يانعة، واحتفظوا بها على هذه الحالة زهاء خمسمائة عام، فلو أنهم لم يفعلوا أكثر من إلغاء الوحشية، وتنظيم الإنتاج والتجارة، وتوطيد نظام الحكم بالقانون في العالم كله، لكان في ذلك الكفاية لكي تظل ذكراهم حية باعتبارهم صانعي مدنية مادية.

ومع ذلك فقد عرف الرومان أن الحضارة أكثر بكثير من الثراء المادي، وقرروا أن يكسبوا ثقافتهم معنى، أن يمنحوا أنفسهم شيئا أكثر من مجرد الأكل والشرب واللعب. ففي القرن الثاني غزوا اليونان وفي الحال (كما قال احد شعراء الرومان) أصبحوا أسرى الحضارة الإغريقية.

ولنشرح هذا القول بكلمات نفهمها، نقول أن الرومان أصبحوا تلاميذ الإغريق المطيعين، فجاءوا، مثلما فعل اليابانيون في القرن التاسع عشر، بالمعلمين من الخارج: أخصائيون إغريق ليحاضروهم، وعلماء إغريق ليعيشوا معهم. ولقد حرص كثير من أعاظم الرومان على أن يسكنوا المفكرين الإغريق في منازلهم بصفة دائمة ليحتفظوا بمستواهم الذهني

المرتفع عن طريق مناقشة الموضوعات السامية الصعبة ... مثال ذلك "كاتو" خصم قيصر الجمهوري والرجل الذي إذا فكرنا فيه فعلى اعتبار انه روماني محافظ قوى الشكيمة، هذا الرجل كان في الحقيقة مفكرا تعلم على الفيلسوف "اثنودورس كوردايليو" الذي كان يعيش في منزله.

ولقد كان الفنانون الإغريق يزخرفون منازل الرومان. أما أدبهم فكان ينشا طبقا للنماذج الإغريقية فيما عدا أساليب أدبية قليلة جدا مثل الهجاء، حتى لقد فاخر مؤلف روماني بأنه استطاع إن يتساوى، بلغته، مع احد أساتذة الإغريق.

ولم تكن نتيجة ذلك، كما قد نتوقع، خلق ثقافة لا تزيد عن إن تكون صورة طبق الأصل من الثقافة الإغريقية. فقد كان الرومان يختلفون اختلاف كبير عن الإغريق في تقاليدهم ونظامهم الاجتماعي وثقافتهم .. كانوا يعلمون أنهم معدومو الحساسية بالنسبة للفن، ولذلك جاءوا بالفنانين الإغريق ليدخلوا الجمال في حياتهم، ولكنهم لم يخجلوا من صفاتهم الخاصة – بيد إن إحساسهم الأدبي ووطنيتهم وتقديرهم للمسئولية كانت من الصفات التي أعوزت الإغريق .. وكانوا يعلمون إن لغتهم قل مرونة وأكثر ضيقا من مجال اللغة الإغريقية، ومع ذلك فإنهم قرضوا الشعر وكتبوا التمثيليات والخطب والديالوجات الفلسفية وسجلوا التاريخ بشكل لم يتح لأحد من الإغريق، وان كان من الواضح أنهم فعلوا ذلك متخذين من النماذج الإغريقية هاديا ومرشدا.

واقع الأمر إن الرومان ساهموا في حضارة ذات جانبين متناسقين يكمل احدهما الآخر، فقد أنتج الإغريق فلاسفة، وأنتج الرومان ساسة تعلموا من الإغريق كيف يكونون فلاسفة أيضا، ومن ثم أصبحوا من عباقرة الساسة – ولقد انشأ الإغريق الفصاحة، فأضاف الرومان إليها العنصر الأخلاقي والاجتماعي. وكتب الإغريق الأناشيد الشيقة وملأوها بالعاطفة الرقيقة، فلما جاء الرومان حذوا حذوهم في الشكل، ولكنهم زادوا الأناشيد عمق إحساس، وأضافوا إليها تفكير أعمق ..

ولقد كان في الإمكان التكلم عن الثقافة الإغريقية مثل نهضة الرومان، ولكن من الأفضل إن نتكلم عن الحضارة اليونانية الرومانية بعد ٢٥٠ قبل الميلاد، تلك الحضارة التي ينتسب إليها الفريقان احدهما كمعلم، والثاني كتلميذ، ولكنهما لم يلبثا أن أصبحا في النهاية خصمين صديقين!

الإمبراطورية الرومانية! .. إن وقع هذا الاسم على الإذن يجعل القارئ يظن أننا نكتب التاريخ بمصطلحات سياسية وحربية فقط، أو انه لا باس من إن نضيف إليها بعض التفسيرات الاقتصادية. بيد أن هذا الوصف لا يكفي، وإنما الأجدى أن ننظر إلى الموقف كله على اعتبار انه عملية تعليمية. بالطبع في الإمكان أن نرسم صورة لتاريخ الرومان باعتباره سلسلة من الملاحم الدموية والتمرد الفاشل الذي انقلبت فيه نسور الجيوش الجرارة إلى وحوش ضارية تحوم فوق جثث الشهداء الدامية

ورجال القبائل التعساء، بل انه لمن الممكن أن يوصف تاريخ الرومان بأنه كان مجالا هائلا للاستغلال الاقتصادي، والبذخ الذي لا حدود له والذي أدي إلى فناء مجتمع برمنه .. بيد أن تاريخ الرومان كان فيه شيء آخر، وهذا الشيء هو ذلك الجانب ذو الأهمية الدائمة، ونعنى به إرادة الرومان وقدرتهم على التعليم، فإلى أهميتهم الثقافية يرجع الفضل في أننا مازلنا ندرس روائع الأدب الإغريقي والروماني، والى قوتهم في التعليم يرجع الفضل في إعجابنا بالرومان وما نحن إلا تلاميذهم.

فقد كان الرومان هم الذين عملوا البرابرة وحضرهم، وهؤلاء البرابرة هم أجداد معظم الشعوب الأوربية: الأسبانيون والمغول والبريطانيون وشعوب البلقان والرومانيون وشعوب شمال أفريقيا .. فقد وجدتهم رزما قبائل مبعثرة تعيش في العصر الحديدي الأول، أميين فقراء .. فعلمتهم في حقب قليلة، الزراعة والتجارة والفن المعماري والصناعة، كما علمتهم في حقب أخرى، القانون والفلسفة والأدب والدين. ومن الجائز أن هذه الشعوب كانت لا تستطيع أن تهضم الحضارة الإغريقية بطريقة مباشرة حتى ولو أتيحت لها الفرصة، نظرا لكثافة هذه الحضارة وصعوبتها وتقدمها .. ولكن هذه المدنية مرت بالعقلية الرومانية الأكثر خشونة فأصبحت أكثر قبولا وقابلية للفهم بالنسبة للبرابرة حديثي العهد بالمدنية. كما أضافت روما إلى هذه الحضارة حضارتها، وخصوصا فيما يتعلق بالقانون والدين.

ذلك لأنه من المحقق أن أعظم درس تلقاه أجدادنا الأوائل عن طريق روما هو المسيحية. وكلل شيء آخر في هذه الحضارة، بدأت المسيحية في الشرق الأوسط، وكان المسيحيون يتكلمون اللغة اليونانية في بادئ الأمر، ثم ترجمت إلى اللاتينية واكتسبت الطابع الروماني، وفي الإمكان تتبع العنصرين اليوناني والروماني في المسيحية مثلما يمكن تتبع العنصر العبري الأصلي فيها، ولكني اعترف بان الشطر الأكبر من مسيحيتنا يذكرني بروما. واني كلما رأيت راهبا اسبانيا في صورة من رسم "زورباران"، أو درست وجه واحد من متديني نيوانجلند يخيل إلى أنني أتطلع إلى واحد من الرومانيين الذين نراهم في التماثيل أو الصور المنحوتة فوق المذابح وهم يقدمون الغداء بخشوع وعلى وجوههم سمات الجد وقد غطيت رؤوسهم تبجيلا للمناسبة.

كان هؤلاء هم أجدادنا القدماء.

* * *

تكلمنا عن ثلاث حالات صنع العلم فيها التاريخ: اليابان وتركيا وحضارة اليونان وروما التي تدفقت في عقول أجدادنا القدامى، والتي ما زلنا نرتشف من مناهلها .. ومن ثم فانه من المحقق انه ندر أن يكون في الإمكان معرفة أي شعب أو أية جماعة عن طريق دراسة تاريخها فقط. وإنما يجب علينا أن نتساءل دائما "من كانوا أقوى معلمي هذا الشعب وما الذي تعلمه منهم؟" خذ مثلا آخر .. ونقصد الاسبانيين الأباة المتطرفين

في الوطنية .. كيف نستطيع أن نفهم أخلاقهم بغير أن نفكر في أولئك الذين ساهموا في صياغتها؟ انك لا تكاد تضع قدمك في إحدى المدن الاسبانية الكبرى حتى ترى وتسمع شيئين قلما يوجدان في أي مكان آخر بأوربا، احدهما حلقة مصارعة الثيران التي ورثها الأسبانيون عن المدرجات الرومانية بما فيها من قتل منظم، وأما الشيء الآخر فهو الغناء الذي يبدوا انه مستمد من الغناء العربي، وإذا عدنا إلى التاريخ الحديث نسبيا فإننا سنعرف المزيد عن الاسبانيين حينما ننظر إليهم كتلاميذ.

في عام ٧١١ ميلادية عبر العرب مضيق جبل طارق، وبعد سبعة أعوام غزوا شبه الجزيرة اسبانيا كلها تقريبا، وشرعوا في عبور جبال البرانس، وفيما عدا منطقو ضيقة للغاية، فان جميع سكان اسبانيا استسلموا للفاتحين، ولقد كان الأسبان رومانيين لهم ثقافة الرومان، ولكن ثقافتهم لم تلبث إن اضمحلت بعد سقوط الإمبراطورية الغربية وغزو البرابرة لاسبانيا. وكان العرب أكثر حضارة في ذلك الوقت، ومن المحقق إن حضارتهم كانت أكثر تماسكا، وكان العرب يحبون الموسيقي والشعر والملابس الجميلة والعمارات الفاخرة والحدائق والأثاث الفخم والفلسفة، وفي غضون أحقاب قليلة، اعتنق كثير من الأسبان الإسلام، حتى أولئك الذين استمسكوا بالمسيحية كانوا يرتدون الثياب العربية في بعض الأحايين، ويعجبون بالجمال العربي وطريقة العرب في الحياة، كما حاولوا إن يكتبوا الخط العربي الجميل.

ولهذه الحالة نتائج كبيرة معقدة يصعب تحليلها الآن، ولكن من اغرب هذه النتائج إن العرب ساعدوا على خلق الشعر الغنائي الأوربي الحديث. فأبان حكم العرب لاسبانيا كانت خمس لغات على الأقل تستخدم في هذه البلاد، أما اللهجات فكانت طبعا أكثر من ذلك. أما إلمامنا باللغة الاسبانية فغامض مبهم غير قابل للتعلم كما انه لا يصلح لإنتاج أدب. ومع ذلك فقد كانت اللغة الاسبانية – كما هي الآن – قوية، فكان الناس ينشدون الأغاني الاسبانية، كما كانت تصلح للرقص على نغماتها والحديث بها. وندر إن كتب الشعر والأغاني باللغة الاسبانية، أو قلما كان الناس يعتبرونها لغة تستحق الكتابة بها لصعوبة استخدامها في صياغة الأدب.

وحوالي عام ٩٠٠ ميلادية اخترع الشاعر العربي "مقدم" نوعا جديدا من الشعر الغنائي اسمه الموشحات، كسر أشكال القافية الشعرية العربية وقضي على جمال أسلوبها"، وذلك بإدخال نثر بلغة عربية عامية ينطق باللغة الاسبانية. والحقيقة انه اخذ أغاني الجماعة وصاغها على شكل أدب. ولقد عثر على بعض قصائد شعرية عبرية مماثلة يرجع تاريخها إلى عام ١١٠٠ أو ما يقرب من ذلك. وقد تبين إن هذه القصائد تحتوى على نثر اسباني بدائي.

والى جانب ذلك يقال إن أول شعر غنائي لجنوب أوربا، بدا فجأة حوالي عام ١١٠٠ في بروفانس بمجموعة قصيرة من الشعر قرضها

كونت أوف بواتيه جويلوم، وان قاعدته تستند فعلا إلى الشعر العربي من ناحية الأسلوب والمادة، ولذلك كثر فيه ذكر صفوف عذاب الحب التي تكثر في الشعر العربي (كالنواح والسهد وقسوة المحب والنار الداخلية). والفكرة في ذلك إن الحبيب عبد المحبوبة. ولقد ذكر إن الحب والفلسفة، عادا إلى العالم العربي عن طريق العرب. ومن الأسفار المشهورة في هذا الموضوع كتاب ابن حزم "الطوق" الذي صدر في عام ١٠٢٢ وورد فيه ذكر أفلاطون، كما انه أكثر من الإشارة إلى الحب الروحي السامي.

* * *

إن أية دراسة تفصيلية لالتقاء الثقافات وبروز الأفكار يجب إن تدخل في حسابها زاوية الميل. يجب إن نتساءل ونحن بصدد هذه الدراسة: هل هاتان الثقافتان الملتقيتان تشتركان في شيء كثير أم في شيء قليل، وإذا كانتا تشتركان في شيء قليل فلا ريب في إن ذلك يشير إلى إن خلافا شديدا وتعاسة سينجمان عن هذا اللقاء. ولا نزاع في إن انفراج زاوية الميل هذه هو سبب تعاسة الزنوج في مجتمع يسيطر عليه الجنس الأبيض، بيد إن هذا الموضوع يمكن إن يدرس بقرينة اقل تطرفا مثل الاتحاد بين الأسبان والهنود .. ففي شمال أمريكا لم يمتزج البيض بالهنود، فقد كان الهنود يتناقصون في بعض الأحايين، بينما كانوا يعزلون في أحايين أخرى، ولكنهم قلما اختلطوا بالبيض لإنتاج شيء جدد

منسجم، إلا إن الامتزاج حدث ف أمريكا الاسبانية ولو انه لم يتم حتى الآن تماما.

تأمل .. إن للأسبان خصائص عديدة في ثقافتهم، وهذه الخصائص توجد (مصادفة) في ثقافة الهنود، كم إن للأسبان خصائص أخرى عدلت الثقافة الهندية بغير إن تقضي عليها تماما مثال ذلك: الشجاعة، واحتقار الموت، والافتتان بالموت، والكتمان الذي لا يلبث إن ينقلب إلى شقشقة لسان وتفاخر، وعمق الإحساس الديني، والميل للقسوة الذي ما لبثت المسيحية إن هبته في الأسبان.

ولكن الشعبين يختلفان اختلافا كبيرا فيما عدا ذلك. إلا انه كان هناك بعض الاتفاق الروحي بينهما، وكانت النتيجة انه كما تغلغلت روما في اسبانيا وغيرتها إلى شيء جديد، تغلغلت اسبانيا أيضا في أمريكا الهندية وغيرتها إلى شيء جديد، ومن كل حال. ومما هو جدير بالملاحظة إن أحسن قصيدتين شعريتين تعالجان شئون الهنود كتبا بالاسبانية (قصيدة "اروكانا" وكتبها ارسيلا، وقصيدة "مارتن فييرو" وكتبها هرنانديه)، فضلا عن موسيقي كارلوس شافيز المكسيكي التي تدل على الفهم العميق للثقافتين.

لنستعرض الآن ما قلناه لنرى إلى أي مدى وصلنا في هذا الحديث.

لقد بدأنا بالقول بان التاريخ كان دراسة للتعبير عن طريق تحليل

الماضي، ثم تساءلنا، ما هي أكثر جوانب الماضي التي تستحق الدراسة، واتفقنا على إن التاريخ كان يعالج أساسا العلاقات القائمة بين جماعات من الناس.

ثم مضينا فتساءلنا كيف يجب إن توصف هذه العلاقات، فان أكثر كتب التاريخ تعالج هذه العلاقات باصطلاحات القوة، ومع ذلك فان المنافسة لا تفسر كلا أو كثيرا من مصائر الإنسانية؛ وبعضها الآخر يعالجها كعلاقات اقتصادية فقط، ولكن ذلك ليس عرضا كافيا للماضي.

ثم قلنا إن الثقافة كانت من أهم العلاقات بين الجماعات، وان كثيرا من التاريخ يمكن إن يستعرض في اصطلاحات من تحرك الأفكار من جماعة لأخرى.

وحينما بحثنا عن مثل لذلك وجدناه أول الأمر في نهضة اليابان عن طريق تعلم الأفكار الأجنبية وهضمها، ورأينا كيف خطت اليابان هذه الخطوة الهامة ثلاث مرات – إحداها إبان العصور المظلمة في القرن السابع. والثانية في القرن التاسع عشر والثالثة تحت الاحتلال الأمريكي في القرن الحالي.

وكانت تركيا مثلا ثانيا، والمثل الثالث هو روما التي جعلت من نفسها تلميذة لليونان، وقد رأينا كيف نقلت ثقافتها للبرابرة.

وأخيرا القينا نظرة على الاتحاد الثقافي العجيب بين العرب واسبانيا، وبين الأسبان وهنود أمريكا.

ولا شك في إن هناك أمثلة عديدة أخرى لتحرك الأفكار بين الجماعات الوطنية والعنصرية في مجال المجتمع والسياسة، إلا أننا نرى الاكتفاء بالأمثلة التي ضربناها في الوقت الحاضر ... يد انه يجدر بمن يدرس تاريخ الإنسانية إن يفعل ذلك من وجهة النظر هذه.

هناك أنواع كثيرة مختلفة من الخرائط، يبين بعضها دول العالم وأجناسه ملونة لا حركة فيها، قابعة في مكانها كأنما لم يكن ثمة اتصال بينها، وتفصلها حدود واضحة. والبعض الآخر يصور تدفق التيارات البحرية، واندفاع الرياح وحركة المد والجزر في الطقس، التي تمر جيئة وذهابا فوق دول الأرض وبجوارها.

وهذه الخرائط تذكرنا – أكثر من الخرائط السياسية – إننا نعيش في وحدة كونية ... ويشبه التأمل في حركة الفكر في جميع أرجاء العالم رسم خريطة جديدة للعالم يمكننا إن نرى فيها الدول النائية يربطها ببعضها البعض مد وجزر غير منظورين وتيارات ثقافية تتحرك في طرقات عجيبة حول العالم كله لتربط وتوحد عقول الناس حتى تجعل منها شيئا شبيها بعقل واحد جبار خارق للطبيعة.

الدين والفن

يعتبر الدين من المصادر الرئيسية للإحساس الفني والابتكار. كما إن الفن وسيلة أساسية من وسائل التعبير عن التفكير الديني. وفي جميع أرجاء العالم – من معابد الصين إلى تماثيل المكسيك – ابتدع الفنانون أكثر الإنتاج الفني قوة وجمالا تبجيلا للآلهة، ومن المحقق أننا لن نستطيع إن نفهم أي دين، في قوته أو ضعفه، بغير إن نقدر الفن الذي أوحي به لعباده، فان التراتيل والعظات القوية البسيطة التي تمتاز بها الكنيسة البروتستانتية، والمذابح ذات الزخارف الضخمة التي تمتاز بها كنائس الروم الكاثوليك، والصور المصنوعة من الفسيفساء بكنائس الروم الأرثوذكس – كل هذه الاتجاهات تعبر عن ثلاث وسائل مشروعة للدنو من المسيحية.

إلا إن هناك بعض أديان لم يعبر عناه فنيا بما فيه الكفاية:

إما لان الفنيين أخفقوا في بلوغ المستوى الضروري من المهارة الفنية، أو لبعض النقص الروحي، أو لوجود لون من المعارضة غير قابل للذوبان في عقول العابدين. وفي بعض الأحايين يخفق احد الأديان في إيجاد التعبير الفني عنه ردحا طويلا من الزمن، ولكنه لا يلبث إن يحصل عليه في مرحلة متأخرة نسبيا، تحت تأثير فكرة جديدة أو حافز خارجي. ومن الأمثلة البارزة على هذه الحقيقية، الفن البوذي الذي يصور لنا هجرة

الأفكار تصويرا رائعا. إذ توجد الآن كمية ضخمة من الفن البوذي كالتماثيل والجدران المزخرفة والصور والمعابد والزخارف الصغيرة التي تجسم حياة وتعاليم بوذا وأتباعه في الشرق الأقصى. ولا شك في أن كل زائر للمتاحف الغربية رأي على الأقل صورة واحدة منحوتة لبوذا نفسه — ذلك الشكل الهادئ ذو المعطف المزخرف الذي تعبر كل قسمة ي وجهه عن السلام. بيد انه لم يكن هناك فن بوذي، أو كان هناك قليل منه خلال القرون الخمسة الأولى. ومن ثم كان ظهور هذا الفن حدثا جديدا سببه استيراد الأفكار اليونانية.

والبوذية — كالمسيحية والإسلام — دين سام خلق في جو من الشرك. وهي مثلهما تأمر بالسلام والإحسان والثقة بالله وبالعدالة الإلهية. ولقد كان بوذا نفسه أميرا من أمراء شمال الهند عاش فيما بين عامي ٥٦٣ و ٤٨٣ قبل الميلاد (وكان اسمه سيداتذا جاوتاما، وكان وريث ساكياس شمال أوده. أما بوذا فكان لقبه ومعناه المستنير) وعندما كان شابا صغيرا هجر منزله، وترك زوجته وابنه متنازلا عن حقه وواجبه في إن يخلف أباه على الإمارة، وذلك لكي يجد وسيلة تمكنه من الارتفاع فوق التزاحم المستمر للرغبات والأقدار البشرية. وظل سنوات طويلة يمارس التقشف المؤلم ويتبع علم الأخلاق الهندي، ولكنه لم يلبث إن نبذهما باعتبارهما عقيمين. وقضي ردحا طويلا من الزمن في العزلة، وهو نهب للشك والإغراء، إلا انه استطاع أن يصل إلى المعرفة في النهاية بعد إن

بذل جهودا عقلية وروحية جبارة. استطاع إن يصل إلى إنجيل جديد، إلى طريقة جديدة للحياة تشمل الأخلاق والدين معا، وتهدف إلى تامين السلام الروحي الكامل. ولقد ظل يعلم الناس هذا الدين الجديد سنوات طويلة رائحا غاديا في شمال الهند مع مجموعة من تلاميذه، فلما بلغ من العمر عيتا مات بسلام مثلما عاش بسلام.

وبعد موته بدأت تقاليد حياته وأعماله تنمو حتى أصبحت إنجيلا كبيرا زاده الخيال الشرقي اتقانا، فخطفت جميع مخلفاته، وأنشئت المزارات والأديرة وكلها مزخرفة بذكريات (المستنير)، بيد إن فنانا هنديا واحدا لم يجرؤ لعدة مئات من السنين على رسم صورة بوذا نفسه، فلماذا؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال. لقد قرر فوشر– وكان يعرف عن الفن والتفكير الشرقيين أكثر من أي ناقد آخر في هذا الحقل – قرر أن ذلك راجع إلى "تأثير العادة". ولا شك في إن هذه الإجابة لا تغني عن معرفة الحقيقة. ولعل الحل الصحيح يكمن في انه كان من المستحيل تقريبا رسم بوذا. فقد كان أكثر من مجرد رجل، ولكنه لم يبلغ مرتبه الإله. كان يعلم التأمل العميق وينادي بالعفة والسلام، ومن الصعب ترجمة هذه التعاليم إلى صور وتماثيل. وعلى كل حال من المحقق أن وجه بوذا وجسمه لم يظهرا إطلاقا في الفن البوذي لفترة لا تقل عن خمسمائة عام منذ موت بوذا نفسه. ورغم أن ذلك أمر غريب، فان الأغرب منه أن الفنانين الهنود كثيرا ما كانوا يصورون مناظر من حياته وتعاليمه. وكانوا

يملئون هذه الصور بأشخاص آخرين، ويتعمدون عدم إظهار بوذا فيها، ولو دعت الضرورة إن يكون هو الشخص الذي يتوسط الصورة.

مثال ذلك: يوجد في سانشى إطار كبير محفور على جدار مرسوم فيه المنظر المؤثر الذي يبين رحيل الأمير الصغير نهائيا عن منزله. وفي هذا المنظر يظهر الجواد فقط، والآلهة الذين ودعوه وساعدوه على الفرار. ولكن بوذا نفسه لم يظهر في الصورة، فسرج الجواد شاغر. وفي هذا المنظر وفي جميع المناظر التي رسمت لتمثل الحقبة الأولى من الفن البوذي لا يظهر أي جزء من جسم بوذا، وأكثر ما نراه في هذه الرسوم هو اثر أقدامه (وهي طريقة غير مباشرة يستعملها الهنود للتعبير عن الشخص الذي يحترمونه)، أو مظلته التي تدل على ارتفاع مكانته كأمير، أو عرش شاغر يقف أمامه رجل من الأتباع وهو يؤدى فروض الطاعة، أو عجلة القانون التي ترمز لتعاليم بوذا، ولكن لا شيء أكثر من ذلك.

وفجأة، وفي احد أركان العالم البوذي، وبغير تطور أو إنذار وطني سابق، ظهرت مجموعة كبيرة من الصور المنحوتة تشتمل على جماعة من الناس متزاحمين حول صورة تكاد تنطق بالحياة لرجل جميل هو: بوذا. وهكذا بدلا من إن نرى عرشا شاغرا بدأنا نرى شكل إنسان نبيل تبدو عليه علامات التفكير، وبدلا من أن نرى سرجا خاليا بدأنا نرى أميرا صغيرا يمتطى صهوة جواده .. وهكذا تقرر أخيرا طابع بوذا سواء بمفرده أو مع تلاميذه.

فأين حدث هذا التقدم المفاجئ، ومن الذي استهله؟

لقد جاءت جميع هذه الصور المنحوتة من بلاد كانت يوما تعتنق البوذية، ولكنها إسلامية الآن: بلاد يبدو أنها أصبحت اقل خصوبة وسكانا خلال القرون التي تلت ظهور البوذية، كما أنها غيرت لغتها وربما صفات جنسها أيضا، وسنطلق عليها (لأغراض تتعلق بهذه الدارسة) اسم جاندهارا، تما موقعها ففي أقصي الشمال الغربي بالباكستان، وتقع على حدود أفغانستان وكشمير.. بلاد كلها تلال مملوءة بالتراب وسهول صخرية تقع بين بشاور ولاهور (ولعل اسم هذا البلد الخالد هو قندهار) وبعد وفاة بوذا بأكثر من قرن، وصل الإسكندر الأكبر إلى قندهار. وفي حوالي القرن الثاني قبل الميلاد غزا الأمراء اليونانيون قندهار وهم في طريقهم إلى الشرق الأوسط، وانشئوا مملكة من تلك الممالك التي تنشا في تقاطع الطرق، تقابلت فيها الحضارة اليونانية وامتزجت بحضارة سهول آسيا الوسطى وحضارة الهند ذاتها. ومن الواضح أن مملكة جاندهارا ظلت على اتصال بالعالم الذي يسوده الخيال والتفكير اليونانيان عن طريق بلاد الشرق الأوسط حتى بعد أن غلب الأمراء اليونانيون على أمرهم.

وفي هذا المكان، وتحت تأثير آراء اليونان الفنية والدينية، ظهر أول رسم منحوت لبوذا، ومن هناك انتشرت هذه الرسومات في الشرق كله، ومازال تاريخ هذا الحادث محل خلاف، ولكن أوثق المصادر يقول

انه حدث في النصف الثاني من القرن الميلادي الأول – وهي فترى كانت المثل العليا الثاني من القرن الميلادي الأول – وهي فترة كانت المثل العليا الأخلاقية اليونانية تنتشر أثناءها في الإمبراطورية الرومانية حتى انجلترا رومانيا وشمال ألمانيا كذا في الشرق الأوسط .. ولقد كان هذا القرن من فترات الرخاء. أما أسماء الفنانين الذين استهلوا هذا التغيير الثوري فغير معروفين طبعا، ولكننا نعرف بالتقريب من كانوا: لقد كانوا ولا شك يونانيين أو قوما ممن يميلون إلى اليونانيين والتدريب اليوناني وأصبحوا شديدي الاهتمام بالبوذية. ولقد واجهوا مشكلة رسم (المستنير) باعتباره إنسانا وباعتباره سوبرمان أيضا، ولما كان تفكيرهم ينجو إلى الناحية اليونانية، فقد استطاعوا التغلب على هذه المشكلة .. ولقد كان الدين اليوناني مختلفا عن أكثر الأديان القديمة من حيث انه يكاد أن يكون دينا يعبد الأشكال البشرية ذات القوة الخارقة والجمال غير العادي، في حين كان المصريون يعبدون آلهة لها رؤوس حيوانات، كما كانت شعوب أخرى قديمة تعبد الشمس والكواكب أو – مثل الرومان – شخصيات لم يستطيعوا تصويرها.

وعلى ذلك فان أول تمثال لبوذا لا يظهره كحكيم من حكماء الشرق وإنما كالإله أبولو. فان شعره ليس مقصوصا أو محلوقا كما ينبغي. وإنما هو غزير متموج يتجمع في عقدة مثل شعر أبولو بلفدير. كما أن معطفه يتدلي حوله في ثنيات رائعة كما هو الحال في تماثيل اليونانيين

وصورهم. أما تعبيرات وجهه فناطقة بشكل رائع، فان صورته التي رسمت في تلك المرحلة المبكرة تظهره مفتوح العينين، تكاد تكون شفتاه مقلوبتين في شبه ابتسامة مصحوبة بذلك التعبير اللطيف الهادئ الذي اشتهر به أبولو اله جمال الرجال .. والأثر الوحيد الذي يدل على أصل بوذا الشرقي في مثل هذا التمثال هو وجود ثقبين في حملتي آذنيه واستطالتهما للدلالة على ناه قبل (الحلق) الذي كان جزءا من حليه كأمير، ولكنه نبذه .. وفي بعض الأحيان ترى خلف رأسه هالة – وتلك صفة لا توجد في الرسومات الهندية الخالصة، كما أنها تتصل اتصالا وثيقا بإله النور أبولو.

بيد انه توجد رسومات أخرى لبوذا مصاغة في قالب اله يوناني، ففي بعض الأحايين يظهر بوذا على شكل شاب مفكر واقف، يرتدي معطفا طويلا يتجمع بمهارة حوله ويكشف عن ذراعه وكتفه الأيمن: أما الذراع فمثني بطريقة تجعل الرائي يظن أن الرسم قد صنع أثناء قيام بوذا بإتيان حركة ذات مغزى بيده. وهذا الوضع يجعلنا نرى من أول نظرة كيف صيغ بوذا على طراز يوناني آخر: طراز المثقف – المعلم أو الخطيب أو الفيلسوف الذي يمثله أروع تمثيل تمثال سوفوكليس الموجود بمتحف لاتران وصورة ديموسينيس المشهورة.

والى جانب هذه الصورة الفردية، توجد رسوم جانداهارية أخرى عديدة منحوتة تظهر بوذا وبصحبته أناس والهة، وإحدى هذه الصور تمثل

موكبا: انه منظر النبذ وقد رسم فيه الفنانون الأوائل جوادا ذا سرج شاغر، ولكن نحاتي جاندهارا اجلسوا بوذا فوق جواد وأحاطوه بآلهة في مجموعة منسجمة – آلهة ترتسم على شفاههم نصف الابتسامة السماوية المعروفة عن آلهة الإغريق. وعندما نتأمل هذه الرسومات يتبين لنا أن هذا المنظر إنما أوحي به طراز آخر من الفن الغربي، طراز يوناني – روماني هذه المرة. إذ أن هذا المنظر يبرز من ناحية التأليف والأوضاع والطراز بصفة عامة نفس الصفات التي اشتهرت في الرسومات الرومانية التي تمثل وصول أو خروج إمبراطور روماني ظافر عند دخوله أو مغادرته إحدى المدن. وإنما الشيء الغريب انه يوجد حاليا تابوت حجري من عصر المسيحية، إبان القرن الرابع، رسم على جانبيه منظر لمركب مماثل جدا لهذا المنظر. بيد أن موضوع الرسم في هذا المنظر هو السيد المسيح، وهو ي ركب أتانا عند دخوله إلى بيت المقدس في احد السعف. وهو منظر يدل على الانتصار. وفي حقب أخرى من حياة بوذا، يمكننا أن نميز بسهولة كيف كان النحاتون يستلهمون نماذج الصور التي كانوا يرسمونها من مناظر مأخوذة من حياة أباطرة يبدو بوذا منفذة طبقا للذوق والفن اليوناني. ففي احد المناظر يبدو بوذا وهو يهدي قاتلا، هو انجوليماليا الذي القي بنفسه عند ركبتي بوذا وخفض رأسه إلى الأرض أمام سيده. ونحن حينما نتأمل هذا المنظر لا نلبث أن نذكر منظر احد البرابرة وهو منبطح على وجهه تمام الفاتح الروماني مثلما هو مبين في إحدى الرسومات الخاصة بقسطنطين.

ومن الجائز أن تكون إحدى صفات هذا التماثيل أو اثنتين منها مصادفة، ولكن التماثل الكامل فيها، قاطع في معناه. ويشير النقاد إلى ديون أخرى يدين النحاتون الهنود بها لزملائهم اليونانيين. فمن هؤلاء تعلم الفنانون الهنود كيف يحققون التناسب في رسوماتهم، وكيف يستخدمون الفراغ الأبيض في تصوير المسافات البعيدة والغرف في هذه الرسومات. وواقع الأمر، لقد تعلم الفنانون الهنود من الفنانين اليونانيين كيف يعالجون الحجر كحجر. كان نحتهم الأول يشبه فعلا رسومات نقلت على الحجر، ولكنهم سرعان ما اكتسبوا ذلك الإحساس الخاص بالصلابة والحجم والهواء والضوء، وهي خلاصة فن النحت اليوناني.

إن كثيرا من الأشكال وعناصر النحت التي عثر عليها في مقاطعة جاندهارا تكاد تبدو وكأنها يونانية بحتة لا تمت إلى الشرق بسبب. فثمة أعمدة تنتهي بأوراق نبات قديم معروف في طراز أطلق تعليه اسم "هندي – كورنثي"، وفي بعض الأحايين تظهر أشكال صغيرة الحجم بين أوراق الشجر مثلما تبدو في تيجان أعمدة حمامات كارا كالا بروما. وتوجد إطارات منحوتة فوق الجدران مرسوم بها أشكال الآلهة من الأطفال والشباب يحملون أكاليل من الزهور المتموجة أسفل منظر من مناظر حياة بوذا، بينما يحملون هالة فوق رأسه. ولعل لهؤلاء الأطفال اسما مبجلا في الهند ولكننا نعرفهم باسم "كيوبيد"، وثم رسم آخر لرجلين

مسلحين وامرأة منذ عرة وجواد مشدود إلى عربة تتحرك في اتجاه سور مدينة. وليس من اليسير على الرائي أن يعرف أن هذا الرسم يصور مدينة طروادة والجواد الخشبي وسينون ولا وكون، ولو أن شكل الأنثى المترفة بخصرها النحيل وردفيها الممتلئتين يجعلها تبدو كأميرة هندية أكثر مما تبدو من نساء كساندرا ... وهناك أيضا مواكب باكشافاليان التي يرقص المانيداس فيها على صوت الصنج، والإله الثمل سيلنيس وهو يركب جواده ويسير بينهن ببطء – وهذا المنظر يذكرنا بأنه، تبعا للأسطورة، فان الإله ديونسيس نفسه غزا الهند وعلم الهنود كيف يستخدمون الكروم.

ومن العجيب انه رغم بعد جاندهارا عن البحر فإننا نجد إطارات رسم فيها آلهة البحر الأقوياء وهم يحملون المجاديف والدرافيل، وأعجب من ذلك أن نجد وحوشا بحرية وبشرية وحيوانية: جيادا مجنحة لها ذيول تنين تمثل قوة الأمواج، كذا آلهة البحر أو الأسماك ذات الذقون والحوافر وذيول التنانين التي تستعمل فروتها المجدولة في الضرب في البحر الأبيض المتوسط، بيد أنها حينما نقلت إلى ارض الدين الباطني، جئت بجوار بوذا وقد ضمت يديها إلى بعضهما في حركة تبجيل هندية.

وحينما نقبل – مثلما يفعل أي مراقب رزين – النفوذ اليوناني في منحوتات جاندهارا، فانا لن نلبث أن نعير على أثره أيضا المرة بعد الأخرى. فان رسم القاتل وهو متكئ على هراوته يذكرنا بهرقل، كما أن منظر روح طائرة في الهواء ذات جزع بشري ضخم عار، ولحية ضخمة يذكرنا بهرقل وأطلس معا. كذلك فان رسم (بودهستيفا) وهو احد

الأشكال التي تجسد فيها بوذا في مرحلة مبكرة، ويبدو فيه في شكل شاب رقيق خفيض الرأي يحمل أكاليل من الزهور، يذكرنا بانطونيوس.

من هذا المركز إذن تعلم العالم البوذي كله رسم صورة بوذا. ومن الطبيعي أن هذه الصورة تغيرت كلما رسم صورته فنانون من مختلف البلاد: سيلان وجاوه واندونيسيا وجنوب الهند والصين والتبت. ولا شك في انه مما يجدر بالملاحظة أن نراقب التغييرات التي أثرت فيه من الفن الهندي بعد هذا العصر. فان النحاتين لم يجرؤوا إطلاقا على إلقاء الشعر الذي أظهره به الفنانون اليونانيون الأوائل، ولكنهم تصرفوا في كثافته كما قللوا من ثنياته المدلاة من رأسه، وجعلوا ثوبه رفيعا كما لو كانوا قد غيروه من صوف يوناني إلى قطن شرقي مثلما جعلوه يبدو وكأنه قطعة من الجسد، وبذلك فقد التأثير الجميل الذي أحدثه النحات اليوناني، بما لجئوا إليه من تغيير في علاج الثوب والجسد الذي تحته، كما جعلوا الجسد اكبر، ووضعوه فوق زهرة لوتس هائلة، وقلبوه إلى شيء أشبه كثيرا بمعبود هائل. واهم من ذلك كله فإنهم جعلوا عينيه – اللتين كانتا يوما تتطلعان بشكل أخاذ من وجهة الأبولوني الجميل إلى العالم الخارجي – تغلقان بالتدريج وقد تبدت فيهما نظرة تنطوي على التأمل وظهرت عليهما علامات الإجهاد واختفت منهما كل عاطفة .. ولكن رغم كل هذه التغييرات، فان التكوينات الايكتوغرافية التي أبرزها الفنانون الأوائل في جاندهارا حفظت مئات من السنين بعد صنعها على مبعدة آلاف من

الأميال، ومن الممكن – حتى في وجه البوذية العينية – أن نعثر فيها على شيء من علامة اله يوناني، وان نذكر شيئا في تدلي معطفه. واغرب من هذا كله، أن نرى في "تل المعرفة" الموجود فوق رأسه ما يذكرنا بشعر أبولو الشاب كثير العقد.

تلك إذن هي إحدى الأمثلة القوية المقنعة على انتقال الأفكار في حقل الدين والفن .. فقد كان اليونانيون هم الذين جعلوا الهنود يرون الشكل الجسدي لمنقذهم، وبذلك ساعدوا على تدرج البوذية من فلسفة (هينايانا) إلى دين (ماهايانا) وزودهم بوسيلة قوية للدعاية لديانتهم هذه في الشرق الأقصى جميعه.

* * *

لندر وجهنا الآن من الشرق إلى الغرب، وسنجد أن اليونانيين هم الذين جعلوا في إمكاننا أن نصور – بالفن منقذنا وحوادث حياته وقصته الدينية .. فمنذ أمد ليس بعيدا اكتشفت بعثة ألمانية أوفدت إلى آسيا الوسطى رسم جماعة صغيرة منحوتا في منطقة جاندهارا. ويبين الرسم شكل شاب راشد قوى عاري الساقين حتى منتصفهما وهو يحمل شكل طفل فوق احد كتفيه، وقد أمكن التعرف على هذا الشخص بسهولة بالرجوع إلى الأدب الهندي .. انه اله الثراء بانكيكا، ولقد كان هذا هو الشكل الذي تخيله عليه أولئك الذين عبدوه في الهند .. بيد أننا إذا نظرنا إليه بالعين المسيحية فإننا نراه رسما لشخصين من الأشخاص

السماويين، هما القديس كريستوفر وهو يحمل المسيح الطفل فوق كتفه ويعبر به النهر – وهذا المنظر يبدو فوق عدد كبير جدا من مداليات القديس كريستوفر. أما إذا استطعنا أن ننظر إليه بعين الوثني أو المؤرخ الفني (يكاد الاثنان يكونان شخصا واحدا في بعض الأحايين) فإننا سوف نراه على حقيقته الأصلية: هرمس أو هرقل يحمل الطفل ديونيسس. ولقد انتشر الموضوع نفسه والتجميع ذاته والفكرة نفسها أيضا شرقا وغربا واستعملت في دينين مختلفين نظرا لجمالها وقوتها.

ورغم أن هذا الموضوع لا يتصل ببحثنا إلا انه من الأهمية بحيث يستحق أن نشير إليه .. إذ انه ليس هناك وصف لظهور المسيح في مصر المسيحية المبكرة. وإذا صرفنا النظر عن الصورة الإعجازية التي رسمها فيرونيكا، فإننا لن نجد رسما أو صورة للمسيح. ومع ذلك فان الفنانين طالما تساءلوا كيف كان شكل السيد المسيح؟ وارتاب بعضهم فيما إذا كان من الصواب أن يرسموا له صورا (ولقد أدي هذا الشك القائم على الوصية الثانية التي تنهي عن تقديس التماثيل حدوث قتال أهلي عنيف كاد محطمو التماثيل أن يدمروا الإمبراطورية البيزنطية فيه). ولكننا لا نعلم ما الذي دفعهم إلى محاولة رسم السيد المسيح وقصة المسيحية، إلا انه من الجائز أن يكون ذلك راجعا إلى تضاؤل نفوذ اليهودية وازدياد قوة الأفكار اليونانية في الكنيسة الأولى (ويمكن تتبع الحركة نفسها في التراتيل المسيحية، وتطور الخطابة المسيحية، ورقة الفلسفة المسيحية،

كما أنها ملحوظة بشكل مماثل في تطور الطقوس المسيحية التي أدت إلى تحويل منضدة العشاء الرباني إلى مذبح، وتحويل احد الأشخاص الأمناء إلى كاهن، والعشاء الرباني نفسه إلى "لغز" لا يساهم الجميع فيه بدور واحد – ويتم في بعض الكنائس خلف حجاب أو ستار أو باب، فيحل بذلك محل الاشتراك الأخوي في الوليمة الأولى). ولهذا فان التماثيل والرسومات الأولى التي وصلت إلينا من المسيحية المبكرة وثنية من ناحية التأليف والتنفيذ.

وأوضح مثل على ذلك هو رسم الملاك المسيحي، وكلنا يعرف هذا الطراز: مخلوق له شعر مرسل ورداء طويل عائم وجناحين كبيرين، ويبدو في حملته اقرب إلى الأنوثة منه إلى الرجولة. ولا يوجد في الإنجيل وصف للملائكة: ومعنى اسمهم "الرسل"، أما جنسهم فذكور. فكيف حدث هذا التغيير؟ ومن أين استمد الفنانون التفاصيل؟ لقد استمدوها من الشعر والنحت اليوناني الوثني إذ أننا نعرف الملاك الآن باعتباره "النصر المجنح".

إن الرسل والقديسين تحيط برؤوسهم دائما تقريبا حلقات من النور الساطع في الفن المسيحي. وليس لذلك وصف في الإنجيل، وان كانت هناك لحظات من التبجيل يبدوا فيها الجسد كله محاطاً بالنور أو مغموراً به. ولقد نقل هذا الرسم فن التماثيل الوثنية، ولقد رأينا كيف انتشرت هذه الفكرة شرقاً لتستقر فوق رأس بوذا.

أما شكل المسيح نفسه فلم يستطع النحاتون اليونانيون أو الرومانيون أو المسيحيون أن يتصوروه على شكل حاخام يهودي، ومن ثم بحث الفنانون عن الطرز الكلاسيكية والوثنية حتى عثروا عليها. وهناك تماثيل صغيرة متعددة للمسيح على هيئة الراعي الصالح، وقد وضع حملاً فوق كتفيه. ولقد استمدت هذه الفكرة من تماثيل قديمة للإله هرمس وهو يحمل حملاً فوق كتفيه. وكان هرمس حامي القطعان والأسراب، ولكن المسيح كان أيضاً صوت العقل والمعلم الذي لا مثيل له، ومن ثم فقد رسم وهو يلبس رداء ويأتي بحركة يشبهان تماماً ما اشتهر به المعلم اليوناني. ومع ذلك فإن جميع الأوضاع التي رسمت للسيد المسيح لا تعبر تماماً عن قوته الإعجازية، ولذلك فقد رسمت صورة على جدران سراديب الموتى وهو جالس تحيط به الحيوانات الجميلة على هيئة أدرفيوس الموسيقي الشاعر صانع المعجزات محيي الموتى ومؤسس دين يحض على الزهد.

وبهذه الطريقة بدأت عملية تداخل الفن الوثني والمسيحي في بعضهما، تلك العملية التي استغرقت أمداً طويلاً واستمرت قروناً عديدة. وبعد أكثر من ألف عام عندما اكتشفت لاوكون، استعمل تيتيان الوضع الذي يبدو عليه شبان طروادة أثناء مصرعهم لرسم صورة القديس سباستيان، بينما استعمل ال "جريكو" الأوضاع الثلاثة ليرسم صورته الخالدة التي تبين البعث الإلهي.

إن الفن بغير تقاليد أشبه بالنبات بغير تربة غنية عميقة.

لقد شهد هذا العالم عدداً كبيراً من المعلمين الخالدين، ولكن أكثرهم عظمة وخلوداً هم رسل الأديان المختلفة. ولا شك في أن أعظم طرق التعليم هي تلك التي حدثت بعد إدخال دين غريب بعيد في جماعة وطنية كانت تشعر بعداء شديد نحوه، ومع ذلك فإنها لم تلبث أن اعتنقته وهضمته.. إن في الإمكان تأليف كتاب عن الرسل – ليس فقط رسل المسيحية وإنما أيضاً رسل جميع الديانات السامية والفلسفات العالية أيضاً مثل فلسفة "عدم المبالاة"... إنهم مجموعة ملهمة من الرجال والملائكة والأبطال.

ولم يكن تأثير رسل الأديان العالمية متساوياً في نقل الأفكار، ولا شك في أن دراسة نشاط الرسل دراسة عميقة مستفيضة يؤدي إلى الكشف عن مبادئ عامة معينة، وأما الآن فيمكننا أن نقول على سبيل التجربة أن الرسول قوي التأثير يحمل أفكاراً أكثر من دينه، وهو – مع جماعة من الناس – يرحبون بهضم المجتمع للتعاليم التي يبشر بها، ولكنه يحتفظ ببعض السيطرة على هذا المجتمع سواء أكانت سيطرة ذهنية أو اجتماعية، كما يستمد الإلهام دائماً من مجتمعه الأصلي، وينجح بالمنافسة، ولكنه يموت إذا اشتدت هذه المنافسة أكثر من القدر المعقول. مثال ذلك أن رسل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الذين أوفدوا لنشر دينهم بين هنود بيوبللو لم يحدثوا تأثيراً كبيراً عندما كانوا ينتسبون

إلى أصل إيرلندي أمريكي، بينما توجد سجلات تدل على أن الرسل المسيحيين ال **Iroquois** استطاعوا أن يؤثروا في جماعات كاملة من الهنود الذين كانوا غرباء عليهم بمجرد الاحتكاك بهم – وذلك لأن التجاوب بين الفريقين كان أثم.

ويحسن بنا أن نشير إلى الأعمال التي قام بها الرسل النسطوريون (الأشوريون) الذين قاموا برحلات مذهلة في الشرق الأقصى كله قادمين من وطنهم في آشور أثناء الفترة التي تتوسط سقوط الإمبراطورية الرومانية وعصر النهضة (كان هؤلاء الناس هم الكنيسة المسيحية الوحيدة في آسيا في أحد الأوقات. ولقد حاولوا مرتين وبنزاهة، هداية الصينيين) ولكنهم أخفقوا – ومن المحتمل أن إخفاقهم هذا كان بسبب ما تعرضت لهم أمهم الكنيسة من هجمات متوالية، كذا لصعوبة المواصلات.. وعلى كل حال فإن حديثنا عن التأثير الخالص لنقل الأفكار يلزمنا بأن نقصر الكلام على رسل البوذية والجزويت. فقد غيرت كل من هاتين الجماعتين الصغيرتين تقاليد العالم، إذ أحدث كل عضو منهما تأثيراً يزيد عن ذلك الذي يحدثه الرجل العادي آلاف المرات.

لقد بدأت البوذية كمذهب فلسفي صغير قاصراً على شمال الهند، بدون أن تكون لها تعاليم مكتوبة، ولا كنيسة منظمة، بل لقد كانت ذات طابع هادئ، وكان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى عدم شيوعها وانتشارها. ولقد شهد العالم عدداً كبيراً من المذاهب المماثلة. ولكن من

الواضح أن هداية الملك أسوكا (عام ٢٤٠ قبل الميلاد) هي التي أدت إلى انتشار البوذية كدين عالمي – وهي مكانة لا تزال تحتفظ بها رغم أنها تضاءلت في وطنها الأصلي.

ويقال إن ماهيندا بن أسوكا هدى سكان سيلان. وما زالت سيلان معقل البوذية حتى الآن.

أما الصين فلم تهتد إطلاقاً، رغم أن البوذية دخلتها وما زالت موجودة بها. وفي عام ٦٢ قبل الميلاد (كما تقول التقاليد) رأى "مينج– في" امبراطور هان، الرجل الذهبي في الحكم، فأوفد سفيراً إلى الغرب ليكتشف من يكون هذا الرجل. وعاد الرسول ومعه راهبان بدأ يعلمان الامبراطور البوذية وعلم الفلك وكذلك نظام الأعداد العشرية. ومنذ ذلك الحين بدأ الحجاج الصينيون يذهبون إلى الهند ويجلبون معهم الكتب ويترجمونها: مثل هاسيوان – شو – يووانج الذي أحضر إلى وطنه مكتبة تشمل مؤلفات سانسكريت، وقضى التسعة عشر عاماً الأخيرة من حياته في ترجمتها إلى اللغة الصينية.

ولقد وصلت البوذية إلى اليابان عن طريق كوريا في القرن السادس من العصر المسيحي، ويقال أن أول رسول بوذي كان راهباً من الصين يدعي شيباً تاشيتو الذي هبط إلى اليابان وبنى معبداً واستمر بوذا بمفرده عدة سنوات، إلى أن جلب رسل بوذيون أخر معلومات أتم عن البوذية وساعدوه في الظفر بإقبال السكان.

أما معرفة تأثير البوذية في البلاد الأخرى فأمر سهل وصعب في آن واحد.. فمن الواضح أن البوذية أنتجت كمية هائلة من الفن المعماري الجيد منه والسيء على حد سواء، كما أحدثت انقلاباً في المجتمع بهداية آلاف من الرجال والنساء وإبعادهم عن الحياة الدنيوية وإدماجهم في حياة الصوامع والأديرة.

وعلاوة على ذلك، فإن المؤرخين يشيرون إلى التغييرات التي حدثت في الفن والشعر بالصين واليابان بتأثير البوذية.

مثال ذلك، أنهم – أي المؤرخون – يؤكدون أن الطباعة إنما اكتشفت للإكثار من الكتب المقدسة. وهم يقولون بثقة عظيمة أن البوذية أدخلت طرازاً جديداً ثميناً جداً (من وجهة النظر العالمية) في الرسم: الطراز الرمزي الخيالي الذي لا يفي بالغرض المقصود والمعروف في اليابان والصين معاً... ويطلق عليه في اليابان اسم "سوماي"، ويتكون من اللونين الأسود والأبيض، ويرسم بالمداد (الحبر) وعلى أرق ورق مستطاع، والغرض منه أن يكون سريعاً تلقائياً وغير كامل لأن الحياة هي كل هذه الأشياء.. وقد قيل لنا أيضاً أن بوذية زن هي التي أوحت إلى باشو باختراع أو بعبارة أخرى بإحياء الشعر الياباني ذي السبعة عشر مقطعاً الذي يعرف باسم (هايكو). فقبل باشو، كان هذا اللون من الشعر طريقة للعب بالألفاظ وضرب الأمثال، ولكنه أنشأ نافذة صغيرة تطل على

العالم[1]. كما ينسب الإخصائيون أيضاً إلى بوذية زن الاندفاع العجيب والغيرة التي يبديها اليابانيون في المبارزة، وتلك الوداعة والهدوء العجيبين الذين تمتاز بهما حفلات الشاي اليابانية، ويقولون أن هذه الصفات كانت نتيجة لتعليم أساتذة مذهب زن.

وشد ما أعجب ألا يمكن أن ينسب الهدوء والمهادنة اللتين يمتاز بهما الشرق – ولو جزئياً على الأقل – إلى تعاليم البوذية المتسامحة؟... وهل هناك عقيدة شرقية أخرى – فيما عدا الإسلام – علمت الناس كيف يكبتون الرغبة والعاطفة، ونادت بالرفق العالمي بالنسبة للإنسان والحيوان على السواء؟

إن أعظم وأكفأ رسالة تبشيرية بعثت بها أية كنيسة مسيحية هي بلا شك المجتمع المسيحي. وقد ألغي هذا المجتمع بصفة رسمية في نهاية القرن الثامن عشر، ورغم أنه استرد اعتباره فإنه لم يستعد جرأته على التبشير، بيد أن المجتمع المسيحي غير تاريخ الكوكب الأرضي في القرنين الأولين لظهوره. فقد كان أول مجتمع ديني شمل العالم كله،

---

[1] مثال ذلك: "أن صراخ الجندب لا يعطي أية إشارة، ولهذا فسرعان ما يموت" (باشو).

"يا لسعادة المتسول الذي يرتدي السماء والأرض بدلاً من ثياب الصيف" (كياكو).

"لقد استمتعت بالمساء كله في صحبة شخص لا يقول كل ما يعتقده" (هايا كوشي).

"في هذا الربيع الشفاف يبدو كأن أحجار القاع تتحرك" (سوسكي).

"اجبت وأنا أنفجر باكياً" "أواه.. إن هزالي أحدثته حرارة الشمس" (كيجن).

"إن الطيور التي تغرد بين الأشجار تسخر من الإنسان الذي لا يملك فراغاً" (شو–يو).

وأوفد رسله حتى بلغوا اليابان شرقاً وساحل أمريكا المطل على المحيط الهادي غرباً، وكان واحداً من أعظم القوى التعليمية التي عرفها العالم.. إذ كان في استطاعته أن يعلم النبيل الفرنسي وزعيم القبيلة الهندي ونجل المأمور الصيني والسيد البولندي بنفس الكياسة والسحر مستهدفاً غايات واحدة تقريباً.

هناك دليلان على كفاية الجزويت كمعلمين: أنهم كادوا يفلحون في هداية مجتمع من أعرق المجتمعات المتحضرة في العالم — ونعني به المجتمع الصيني، وآخر من أقلها حضارة وهو مجتمع هنود وسط أمريكا الجنوبية.

أما قصة نجاحهم القريب في هداية الصيني فمعروفة جيداً: فقد تعلموا لغة الصين ثم فنونها وشعرها وفلسفتها ودخلوا الصين جزءاً فجزءاً بكياسة رائعة وحذر عظيم. وكانوا دائما يقولون إنهم إنما جاءوا فقط ليتعلموا مزيداً من الثقافة الصينية، ووطدوا أقدامهم في البلاد بوصفهم علماء — علماء فلك أولاً، لأن الصينيين كانوا يعانون من القلق بسبب التقويم — واستقروا بادئ الأمر في عاصمة الصين، حيث أنشأوا مرصداً، ثم غاصوا في الحضارة الصينية حتى يستطيعوا تغييرها ببطء، وأصبح أحدهم رساماً صينياً ذائع الصيت بينما أصبح آخر معلماً للإمبراطور.. وقد نجحوا في اليابان أيضاً. ولكنهم أصبوا بالهزيمة بسبب مؤامرات منافسيهم الكاثوليك، لا لفشل فنهم في التعليم الذي قلما يوجد فن يباريه، ولكن لأن المعلمين الأكفاء ليسوا دائماً سياسيين أكفاء.

وبالمثل دخل الجزويت إلى أمريكا الجنوبية حيث يوجد الآن شمال الأرجنتين وارجواي وباراجواي مع الرعيل الأول من المهاجرين، واستطاعوا أن يروضوا الهنود المتوحشين، ويتعلموا لغتهم، ويساعدوهم في إيجاد طريقة للحياة أكثر راحة ونظاماً وصلاحاً، ثم بدأوا ينشئون حضارة.. فشيدوا القرى وارتادوا المناطق المجهولة ورسموا لها الخرائط وأدخلوا الوسائل الزراعية النافعة، وزراعة المحاصيل، وتعلموا لغات الهنود وسجلوا قواعدها اللغوية كما ألفوا معاجم خاصة بها، ثم درسوا الحياة النباتية هناك واكتشفوا الخواص غير المعروفة للنباتات، ودرسوا الطقس، وأنشأوا المراصد، وعلموا الوطنيين كيف يبنون المنازل والكنائس، وكيف يمارسون فن النحت والرسم ويلعبون الموسيقى (بعد قرن من وصول الجزويت، اكتشف سائح في بيرو أن الهنود كانوا لا يزالون ينشدون الأغاني ويرقصون الرقصات التي علمها الجزويت إياهم)، ونظموا مجتمع الهنود بطريقة تكفل مقاومة تجار العبيد الوافدين من البرازيل، بل لقد أنشأوا جيشاً نظامياً وصنعوا مدفعاً يطلق القذائف. وما زالت أطلال أعمال الجزويتقائمة في مقاطعة كادت تذهب بها الأيام منذ رحل الجزويت؛ ومن الواضح أن هذه المقاطعة تنكرت للعلم في سبيل الاستقلال السياسي والاجتماعي أو العزلة.

إن موضوع هجرة الثقافات كله يعتقد أحياناً بسبب العاطفة. وإني لأذكر أن طالباً قال لي ذات مرة أن عمل المبشر عمل "خاطئ" لأنه

"يتدخل" في التطور الطبيعي للناس، أو لأنه يفترض أن الأشخاص الذين يوفدون للتبشير "أحسن" من أولئك الذين يوفد إليهم المبشرون. بيد أن مؤلف هذا الكتاب لا يجد من واجبه أن يصدر أحكاماً أدبية من هذا اللون، وإنما نحن نناقش ما حدث، ونحاول أن نستنتج كيف حدث.. أما كأفراد عاديين فإننا نستطيع قطعاً أن نقول أن معظم أعمال التبشير كانت نافعة عندما هبطت من ثقافة عالية إلى أخرى دنيا، وأنه من الممكن، وربما من الضروري، أن نؤكد تفوق بعض الوسائل على غيرها من هذه الناحية، مثال ذلك، أن من أعنف التغييرات التي أحدثها مجتمع بواسطة هجوم مجموعات جديدة من الأفكار هو قطعاً ما حاوله الإسبانيون والبرتغاليون من تحويل هنود وسط وجنوب أمريكا من الوثنية إلى المسيحية. ويقال إن هذا التحويل لم يتم، وأن المسيحية الهندية ما زالت تحتفظ ببعض علامات من الوثنية، ذاتها "فرضت" على الهنود، وأنها غيرت من طبيعتهم الحقيقية.. وهلم جرا.. بيد أننا إذا تذكرنا دين المكسيكيين البغيض الذي كان يبيح تضحية الإنسان على نطاق واسع، وكيف كان كهنته – الذين لم يغسلوا أيديهم يوماً من دم ضحاياهم – يشقون صدر أحد الشبان بمدية من الحجر ويقتلعون قلبه الحي. وأنهم كانوا يسلخون جلد الضحايا وهم أحياء ويضحون بهم في سبيل إله مسلوخ الجلد بدوره – إذا تذكرنا ذلك كله، فإننا لن نشعر بأي أسف من أجل التغيير الذي حدث وأدى بهؤلاء القوم إلى اعتناق دين سلام وإحسان تعتبر القسوة فيه خطيئة لا فضيلة عظيمة.

لنلق الآن نظرة على ما بلغناه من تقدم في هذا البحث.. لقد تتبعنا فيما سلف من حديث حركة الأفكار من جماعة إلى أخرى كما يعبر عنها الدين والفن.

وكان المثل الأكبر الذي اخترناه هجرة الفنون والأفكار الفنية اليونانية إلى العالم الهندي والشرقي، فرأينا كيف أمكن للبوذيين حينما اعتنقوا هذه الأفكار أن يحصلوا على فكرة جديدة عن دينهم وكيف انتشر هذا الدين في الشرق الأقصى كله.

وثم مثل آخر، وإن كان عبارة عن حركة بداخل ثقافة واحدة أكثر مما هو حركة من ثقافة إلى أخرى، هو استخدام الرموز الوثنية في الفن المسيحي.

وهناك مثل ثالث هو عمل المبشرين، ولقد اخترنا من هذا الميدان مثلاً واحداً فعالاً بشكل خاص هو عمل رسل البوذية والجزويت.

وهناك ميادين أخرى كان يمكننا أن نرتادها.. فقد كان في استطاعتنا مثلاً أن ندرس استخدام الترجمة في نشر الأفكار الدينية والفلسفة، كالتأثير العميق الذي أحدثه الإنجيل الإنجليزي بصفة خاصة في التفكير البريطاني والأمريكي، والتأثير العظيم الذي أحدثه إنجيل لوثر الألماني في التفكير والشعر الألماني، والتأثير الذي أحدثه نشاط البوذيين في ترجمة مكتبات برمتها ممن إنتاج سانسكريتي فوسعوا بذلك نطاق لغتهم.. وترجمة إنتاج أفلاطون من اليونانية إلى العربية ومن العربية إلى لاتينية أوربا الغربية — كان في استطاعتنا أن نتحدث في هذا كله. كما

كان في استطاعتنا أيضاً أن نشير إلى أنه يحدث أحياناً أن تكون الترجمة الجديدة بمثابة حافز جديد على التفكير في الموضوع ولو لم تكن هذه الترجمة الجديدة أفضل من الترجمة القديمة.. كما لاحظنا في الترجمة الجديد للإنجيل في العصر الحديث.

وكان في استطاعتنا أيضاً أن نقضي ساعة ممتعة في الحديث عن موضوع أشرنا إليه بإيجاز، وهو إحياء الفن اليوناني والروماني في الفن الحديث ابتداء من عصر النهضة بعد أن نسبها العالم زهاء ألف عام.. كما كان يجب علينا أن نشير إلى القوة الدافعة الضخمة التي منحت للرسم والنحت والمعمار والزخرفة الداخلية نتيجة لازدياد اكتشاف وتقدير الأشياء اليونانية والرومانية، من الأبنية اليونانية الجميلة الموجودة في الولايات المتحدة الجنوبية إلى الكنائس نصف اليونانية الفاخرة الموجودة في الشمال، من آرك دي تريومف (قوس النصر) إلى المادلين، ومن قبة كنيسة سانت بول إلى الكابيتول، ومن نحت برنيتي إلى رسومات بوسين، ومن دافيد إلى ميشيل أنجلو.

ولعله كان في استطاعتنا أيضاً أن نقول شيئاً عن الفنانين الرحل كالماسون الذين بنوا كاتدرائيات القرون الوسطى، وعن رجال مثل ديورد أو ستورت "الأثيني" الذي كانت زيارته لأثينا في عام ١٧٦٢ بمثابة إحياء للفن اليوناني.

ولكننا اكتفينا بذكر المعلومات الهامة من هذا الموضوع الخلاب..

إن كثيراً من الفنانين أنانيون، وكثيراً من المبشرين ذوو تفكير خاطئ، وكثيراً من رجال الدين محدودو التفكير بدرجة مؤلمة، ومع ذلك فإن من نعمة الله الدائمة علينا نحن البشر العادي أن نراقب حركة الروح البشرية وهي تنتقل من جماعة إلى أخرى لتنتج تقديراً أسهل أو أتم لما في هذا العالم من جمال، وإدراكاً أغنى للذات الكامنة في أعماقنا والذات التي فوقنا.

الفنون والمثل العليا

كان تفكيرنا في المراحل الأولى من هذا الحديث، منصباً على الأشياء غير المادية – على الرسومات الوطنية، وطرق رسم شكل ديني كبير، وعلى طوابع الشعر، وأنواع النشاط الديني. ويمكن تصوير حركة الأفكار أيضاً بالطريقة الوحيدة التي ترحل بها المخترعات الحديثة عبر العالم – فنون جديدة في استخدام الأشياء المادية. فهذه أيضاً تغير التاريخ.

وأحد هذه الاختراعات: الورق.. فقد اكتشفه الصيني تسي آي لون عام ١٠٥ قبل الميلاد. وما كاد هذا الاختراع يكتشف حتى دفع بالأدب والثقافة الصينيين دفعة كبيرة إلى الأمام. وظل استعمال الورق قاصراً على الشرق الأقصى فترة من الوقت (في تلك الأثناء كان المصريون والرومانيون يستعلمون شيئاً أقل كفاية ولكنه أرخص وأسهل استخداماً: ورق البردي الذي كان يصنع من لب نبات مائي شبيه بالغاب، وحوالي نهاية الإمبراطورية الرومانية، توقف الرومانيون عن استخدام ورق البردي وبدأوا يكتبون على جلد العجل المعد خصيصاً للكتابة، وكان يطلق عليه اسم ورق الكتابة أو "بارشمانت"، ومن المحتمل أن هذا التغيير حدث لأن الغزاة العرب الذين فتحوا مصر قضوا على تجارة ورق البردي. على أنه من المحقق أن من بين الأسباب التي أدت إلى تضاؤل الأدب في القرون الوسطى أنه كتب على ورق الكتابة (وهو مادة نادرة مرتفعة

الثمن). على أنه سرعان ما بدأ الورق يصل – بواحدة من تلك العمليات الغريبة التي لا يكاد يتصورها العقل – إلى العالم الغربي قادماً من الشرق الأقصى. وحوالي عام ٧٠٠ هوجمت حامية عربية كانت موجودة في مدينة سمر قند التجارية. هاجمتها قوة صينية عسكرية، فطاردها العرب وهاجموها وأسروا بعض رجالها، وكان من بين الأسرى بعض صناع الورق من الصينيين، وقد علم هؤلاء الأسرى العرب كيفية صناعة الورق، ومنذ ذلك الحين كتب الأدب العربي كله تقريباً على الورق، وبذلك أصبح غنياً في تنوعه وكميته. وقد انقضت ثلاثة قرون تقريباً قبل أن يصل الورق إلى أوربا المسيحية. وهبط أول ما هبط في صقلية حوالي عام ١١٠٠، وفي إسبانيا حوالي ١١٥٠، ثم انتشر في ألمانيا ففرنسا فبريطانيا. أما تأثيره على التعليم وجميع فنون الحضارة منذ ذلك الحين فكان هائلاً ولم ينته هذا التأثير بعد.

إننا ننسى أحياناً أهم المخترعات التي اكتشفها الإنسان منذ وجد على ظهر البسيطة، ولا شك في أن أهم هذه الاختراعات هو المحاصيل الزراعية. فنحن قلما نأكل الآن شيئاً برياً، فإن جميع الخضروات والحبوب والفاكهة والجذور التي نأكلها من استنبات الإنسان. ففي مكان ما، وزمن ما، أخذ أحد المخترعين (أو جماعة من المخترعين) نباتاً برياً وأكله ووجد طعمه جيداً. ثم اكتشف كيف يجعله ينمو بانتظام، وقد حسن نوعه بالتدقيق في الاختيار. ثم استخدمه بطرق مختلفة؛ ولا شك

في أن الطهي اخترع في الوقت ذاته تقريباً، إذ أن كثيراً من النباتات لا يصلح للأكل وهو نيئ. فكان لابد من طحنه وخبزه أو غليه أو تجفيفه أو (تسبيكه).

فأين حدثت هذه الاختراعات؟ وأين زرعت النباتات؟

يوجد حوالي اثني عشر مركزاً جاءت منها النباتات المزروعة أصلاً، فقد اخترعت النباتات هناك، ومن هذه المراكز انتشرت زراعة النباتات في جميع أنحاء العالم منيرة حياة البشر وهي ماضية في طريقها.

(١) أن أهم، وربما أقدم، مركز من مراكز الاختراع هذه هي التلال والأراضي المنخفضة الموجودة في وسط الصين وغربها. فهناك نشأ ما لا يقل عن ١٣٦ نباتاً صالحاً للأكل والشرب بما فيها الشاي، وأربعة عشر صنفاً من الحبوب (مجموعة منوعة من الأذرة العويجة والحنطة السوداء) والراوند والكريز والخوخ والمشمش وأنواعاً عديدة من الفجل واللفت (يبلغ وزن بعض أنواع الفجل الصيني ٢٦ رطلاً)، والبصل الإسباني والخس.

(٢) والمركز التالي في الأهمية هو الهند، فهي محل ميلاد ١١٧ نباتاً بما فيها الأرز (الذي صدر إلى الصين فيما بعد) وقصب السكر والبرتقال والليمون والمانجو والخيار والباذنجان والجوت.

(٣) أما المركز الثالث، وإن لم يكن قد اكتشف تماماً، فهو جزر الهند الشرقية (بما فيها جاوه والفلبين) وقد أنتجت وزرعت ٥٥ نباتاً بما فيها نخيل جوز الهند والموز وثمر شجرة الخبز وكثيراً من التوابل.

(٤) تأتي بعد ذلك آسيا الوسطى، النجد العالي (شمال غرب الهند وكشمير وتيان شان وأفغانستان) وهي موطن ٤٢ نباتاً بما فيها القمح (ما زالت أنواع مختلفة كثيرة تنمو هناك شبه برية) والعنب والقطن والجزر واللفت والثوم والحبوب والعدس والفول والخردل والكتان.

(٥) أما أول محصول من العلف وأول أنواع الحدائق فقد اخترعت في الشرق الأوسط، وكان عدد نباتاتها ٣٨ نوعاً بما فيها العنب أيضاً والجودار والشوفان وأنواع عديدة من القمح والعنب والكرنب والقرع والورد والتين والكمثرى والخشخاش (أبو النوم) والرمان.

(٦) ويأتي بعد ذلك حوض البحر الأبيض المتوسط موطن الزيتون مع كثير من الخضراوات وبعض محاصيل العلف.. وهنا نجد حشيشة الدينار والكراث والبنجر والخرشوف ومجموعة مختلفة من القمح مثل القمح "البولندي".

(٧) وهناك بعد ذلك الحبشة التي لم تكن بها فاكهة أو خضروات حتى أدخلهما الأوربيون فيها، ولكن كانت توجد بها مجموعة مدهشة يبلغ مجموعها ٣٨ نوعاً، ومن الجائز أنها كانت الموطن الأصلي للشعير وغيره من مختلف أنواع القمح.

(٨) أما في أمريكا فكان المركز الرئيسي أمريكا الوسطى موطن الذرة والقطن (الذي يرتكز عليه المحصول العالمي) والبطاطس والكاكاو وغيرها.

(٩) وتأتي بعد ذلك الأراضي المرتفعة في بيرو وبولونيا والكوادور المملوءة بالتوابل الوطنية التي لم يتم تطويرها نهائياً حتى الآن.. كما أنها تنتج التبغ ومجموعة منوعة من القرع والبطاطس (أما البطاطس "الإيرلندية" فتأتي من جزيرة شيلو الصغيرة القريبة من شيلي).

(١٠) وآخر هذه المراكز هو البرازيل وبرجواي، وينتجان الفول السوداني والأناناس والمطاط.

ومن بين الـ ٦٤٠ نباتاً الأساسية، ينتمي أكثر من ٥٠٠ إلى العالم القديم بينما ينتمي ٤٠٠ إلى جنوب آسيا. وقد جاء عدد قليل منها من أفريقيا، بينما لا يكاد شيء منها يجيء من أستراليا. بالطبع، من الجائز أن تنبت نباتات ذات أهمية عظيمة في أي مكان مثال ذلك أن الموالح نبتت أصلاً في جنوب شرق آسيا، ولكن أهم نوع من أنواع البرتقال ظهر أول الأمر في البرازيل.

ليست جميع النباتات ذات أهمية عظمى: فإن في استطاعتنا أن نعيش بغير البصل، كما أن حياتنا لن تتوقف إذا انمحى المشمش من الوجود. ومع أن الخوخ ضروري جداً في جورجيا فإنه ليس كذلك في فيرمونت[٢].. ومع ذلك فإن أجزاء كبيرة من عالمنا مبنية على القمح

---

[٢] خطرت لهوراس ولبول مرة أفكار عديدة عن التجارة والحضارة اللتين يمكن أن تنشأ من مائدة طعام فقال: "هل يمكنك أن تتناول الحلوى من الذاكرة؟ الكريز والبندق في بونتاس والليمون الحلو من ميديا والكستناء من كاستانا بآسيا الصغرى والخوخ والجوز من فارس والبرقوق من

والأرز والقطن والقنب وجوز الهند.. ولقد كتب تاريخ اجتماعي هام حول البطاطس. ومن الجائز أن نظن أن مثل هذه الأغذية إنما الغرض منها إطعام أجسام الناس ولكنها لا تؤثر في عقولهم. لكن فكر في تأثير مجاعة البطاطس الإيرلندي القومي على الروح المعنوية، وبالتالي على تاريخ الجزر البريطانية والولايات المتحدة.

هناك اختراعان حديثان هامان يؤثران تأثيراً مباشراً على عقول البشر ويمكنهما أن يحيطا بالعالم إبان حياتنا.. هذان هما الصور المتحركة والراديو.. أما قصة تقدمهما وانتشارهما فمعروفة جيداً.. لكن ماذا سيكون تأثيرهما؟ لقد سمعنا المتفائلين يقولون إن مثل هذا الاختراع – الذي يجعل الاتصال أكثر سهولة – يجب أن يساعد الديموقراطية. ويزيد من الثقافة.. ولكن هل هذا مؤكد.؟

إن الراديو اختراع يتساوى في الأهمية مع الورق. فإن الناس يتكلمون ويسمعون وقتاً أطول كثيراً من ذلك الذي يصرفونه في القراءة والكتابة.. ومعظم الناس في هذا العالم أميون أو قليلو العلم، ولكنهم جميعاً يحبون الإصغاء للقصص والموسيقى.. كذلك فإن القراءة والكتابة مشروعان فرديان إلى حد كبير: شخص يكتب ويقدم أفكاره لأشخاص

سوريا والرمان من قبرص والسفرجل من صيدا والزيتون والتين من اليونان، حتى أنواع التفاح والكمثرى وإن وجدا بريين في فرنسا وهنا أيضاً أما المشمش فمن أرمينيا" (نقلاً عن كتاب حديث المائدة – طبعة جثورنتون بنيويورك عام ١٩٣٤ ص ١٢٥).

آخرين يقرأون كتبه منفصلين ويهضمونها كل على حدة. ولكن الاستماع نشاط جماعي.. ولقد أحبت المجتمعات الكبيرة من العالم الأمي الإصغاء دائماً –والثرثرة.. فهي تحب أن تصغي إلى القصص التي يسردها رواة القصص المحترفون، وإلى الشعر يرويه كتابه، وإلى المراسيم الدينية يؤديها رجال الدين..وهلم جرا. ولقد أصبح في استطاعة هذه المجتمعات أن تستمع الآن، إلى أصوات الحكام وهم يتحدثون إليها بلهجة الإقناع وبلغاتها.

وبسبب هذا السلطان وسهولة اجتذاب السامعين، فإن من الممكن جداً أن ينشر الراديو الطغيان لا الحرية.. فلو منحت أجهزة راديو رخيصة إلى جمهور كبير يعيش في أحوال بسيطة ولا يعرف القراءة، وإذا تعرض مثل هذا الجمهور باستمرار لدعاية معينة عن طريق الحديث في الراديو، فإن عقله قد يتكيف سريعاً فيقبل ما يلقيه عليه من الحكام.

وبالمثل، إننا نعتقد أن التصويت حق قاصر على الشخص المتعلم، ولكن هذا الحق مباح في كثير من مناطق العالم الكبيرة لكل شخص يستطيع أن يتطلع إلى الرمز ويرسم علامة على ورقة.. والآن، ما هو التأثير الذي تستطيع الصور المتحركة أن تحدثه في مثل هذه الشعوب؟ بالطبع، إنها تملك القوة على زيادة الانفعال العاطفي والإقلال من الانعكاس العقلي بالنسبة للشئون الاجتماعية والسياسة العاجلة.. يقول الرجل الصيني أن الصورة تساوي ألف كلمة، وليس هناك شك في أنها أكثر إثارة منها عادة..

بل إن الصور التي تتحرك وتتكلم أكثر إثارة من الناحية العاطفية.. إنها جد قوية – ولكني لن أطلق عليها "أفكار" وإنما أعتبرها جذور أفكار تستطيع أن تطبع الاتجاهات القوية والتحامل في عقول الجماهير الضخمة إذا استخدمت (أي الصور المتحركة) بمهارة.. وواقع الأمر أنه كلما عم استعمال الراديو والصور المتحركة، وكلما تحسنت طرق الدعاية المستخدمة فيهما، أمكننا أن نتوقع أن نرى العالم وقد أصبح أكثر تعقلاً ولكنه أكثر قابلية لسرعة الانفعال والخصام والتشاؤم، يحب بجنون ويكره بوحشية، شجاعاً متذمراً ولكنه ندر أن يكون عاقلاً.

هناك أمثلة أخرى لا حصر لها ولا عد على انتشار الاختراعات والفنون بعضها معقد إلى درجة لا تصدق، خذ مثلاً صغيراً: فن الاستحمام الذي يوجد حالياً في النوادي والحمامات والملاعب المزودة بغرف البخار والتدليك والحمامات الباردة و(الدوش).. إن هذا النظام من أقدم النظم المعروفة في العالم الغربي، ومع ذلك فقد نسيه العالم الغربي ألف عام. ثم ظهر في إلياذة هوميروس. ثم نقله الرومان (ككل شيء آخر) عن العصر اليوناني المتأخر، وهذبوه وجعلوا منه شيئاً ضخماً بشكل لا يكاد يصدقه العقل، ومعقداً. فقد كانت الحمامات العامة في روما من الضخامة والتعقيد مثل راديو سيتي..ولتتصور مبلغ هذه الضخامة يكفي أن تذكر أن محطة بنسلفانيا في نيويورك مصاغة على هيئة غرفة واحدة في حمامات كاركالا.

ولكن حينما جاء البرابرة وأوقفوا هذه الحمامات لم يلبث الغرب أن نسيها.. ولقد كان المتعبدون المسيحيون محاطين بجو خاص. أما ما عداهم فكانوا يغطسون في حمامات باردة صغيرة أو ساخنة في المنازل ومع ذلك فإن فن النظافة في الإمبراطورية الشرقية انتعش بسبب الحمامات الضخمة التي أقيمت فيها.. فعندما استولى الترك على بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الشرقية في عام ١٤٥٣ استخدموا هذا الفن. وبعد ذلك بحوالي ثلاثمائة عام رأى أحد المسافرين الغربيين هذه الحمامات في تركيا ومر بها فأحبها، وعندما عاد إلى إنجلترا أدخلها بها. وسرعان ما أنشئت الحمامات في مختلف المدن الإنجليزية حيث زودت بوسائل التدليك وغرف البخار، وهي كثيراً ما تحمل الاسم العربي (حمام). وكثيراً ما يطلق عليها اسم "الحمامات التركية" ولكنها ليست تركية.. إنها يونانية – رومانية وهو أمر ندر أن يفهمه رواد الحمامات "التركية" في لندن، وهم راقدون للاستعانة بالبخار في طرد (الرطوبة) من عظامهم، مع أنهم على مبعدة خطوات قليلة من بقايا الحمام الروماني الذي أنشأه الرومان المستعمرون في بريطانيا منذ حوالي ألف عام.

خاتمة

أجملنا في حديثنا السابق مدخلاً غير عادي لدراسة التاريخ، وقلنا إنه يفسر كثيراً من المشكلات التي يعالجها المؤرخون العاديون علاجاً غير مناسب. صحيح إن الإنسان مخلوق يحب القوة ويخشى الضغط والكبت – ولهذا فإن السياسة تطغى على قسم كبير من تاريخه –كما أن الإنسان مخلوق يهوى الصناعة، كما أنه جشع، ولهذا فإن الاقتصاد يطغى أيضاً على قسم كبير من تاريخه. ولكن الإنسان يختلف أيضاً عن كل مخلوق في هذا العالم تقريباً من حيث أن له عقلاً، وعقلاً كبيراً يتمتع بالقدرة على استخدامه.. ويطلق على جنسنا اسم "هوموسابالين". ولما كنا نتمتع بنعمة العقل والقدرة على التفكير فيجب أن يكتب تاريخنا أيضاً بعبارات من الأفكار.

ورغم أن الدنو من التاريخ بهذه الطريقة أمر غريب إلا أنه ليس جديداً تماماً.. إذ لو كان كذلك لتعين علينا أن نرتاب في أمره ولو قليلاً.. ومع ذلك فإن مجموعات مختلفة من العلماء تعالج الموضوع من هذه الناحية منذ أمد غير قريب.

لقد رأى المؤرخون حديثاً بوضوح أكثر فأكثر أن التاريخ ليس سياسة فقط، وأن من المستحيل أن نفصل السياسة عن الدين، والدين عن الحياة الاجتماعية، والحياة الاجتماعية عن الآداب والفنون، وبصفة

عامة أن نفرق بين الخيوط التي تمتزج معاً لتكون نسيج ثقافة كاملة. ولقد كتب بعض المؤرخين أسفاراً هامة عن الثقافات المفردة، ولكنهم أخطأوا حينما عالجوا هذه الثقافات على حدة، كما لو كانت كل منها تتألف فقط من أناس متداخلين في بعضهم البعض في بيئتهم المادية، رغم أن الحقيقة هي أن الأفكار المحيطة والأقوام المجاورة هما جزء قوي نشط للبيئة في كثير من الحضارات. ولقد كانت هذه إحدى الأخطاء التي وقع فيها أزوالدسبنجلر، ولكن مستر أرنولد تونيبي لم يرتكب هذا الخطأ، فإن المجلدين التاسع والعاشر من كتابه "دراسة في التاريخ" الذين يوشكان على الظهور باهتمام "بالاتصال بين الحضارات" في الفراغ والزمن. ورغم أنه يعالج أساساً الاتصال المنطوي على العنف أو التفرقة – بل إنه يسرف في هذا العلاج إلى درجة أنه يرى أحياناً الحضارات المتداخلة المتفاعلة وكأنها "معتد وضحية" – كما أنه يبرز أهمية العلاقات السلمية والتعليمية بين مختلف الثقافات، ويرسم صوراً معينة "لقوانين الإشعاع الثقافي" التي توضح هذه العلاقات بعبارات من نظريته العامة عن التاريخ.

ويبدي علماء الاجتماع والنفس اهتماماً بالفكرة لا من حيث أنها ظاهرة تاريخية ولكن باعتبارها عاملاً متجدد الحدوث في الحياة المعاصرة. ومن ثم فإنهم يقولون إنه ليس من المفيد جداً أن ندرس ثقافة "أمرندية" واحدة كما لو كانت قائمة بذاتها في الفراغ. ذلك لأن معظم

الثقافات (الأمرندية) كانت تتصادم إحداها مع الأخرى، غازية أو هاربة أو منافسة؛ وكان معتنقوها يكيفون حياتهم تبعاً للواحدة أو الأخرى.. ومن ثم فإن من المستحيل أن نفهم القوم الذين يعرفون باسم (هوبي) بغير أن نعلم أنهم كانوا يتعرضون دائماً لإغارة الـ (نافاهو) عليهم.. أما المصادمات في العصر الحديث فأكثر أهمية.. فحينما يدخل الإنسان إحدى قرى الـ (بيوبلو) التي تبدو وكأنها لم تتغير منذ أنشئت في القرن السادس، فإنه يسمع الناس يتكلمون اللغة القديمة ويراهم لا يزالون يصنعون الآنية الخزفية القديمة، كما يلاحظ أيضاً وجود زجاجة فارغة في أحد الأركان، ويسمع موسيقى راقصة إسبانية أمريكية تنبعث من جهاز الراديو.. أما الويسكي فقد اخترعه الكلت، ولعل قدماء المصريين هم الذين اخترعوا الزجاج في حين اخترع علماء الغرب وأمريكا الراديو، ولعل الموسيقى الراقصة من وضع أحد أحفاد الغزاة الإسبان. ومع ذلك فإن جميع هذه الأشياء أجزاء من ثقافة الهندي الـ (بيوبلو).

لقد كان أكبر هجوم شن على هذه المشكلة هو الهجوم الذي قام به علماء الأنثروبولوجيا. وما أطلقنا عليه، "هجرة الأفكار" يطلقون هم عليه عادة امتزاج الأفكار في هذه البلاد و"اتصال الثقافات" في بريطانيا. ولقد درس هذا الموضوع بإسهاب كل من أ. ل. كروبير من كاليفورنيا، وملفيلهيركسفوتس من نورث ويسترن، ورالف لينتون من كولومبيا وبيل وروبرت ردفيلد من شيكاغو وغيرهم. أما الطالب الذي لا يلم بعلم

الأنثروبولوجيا فقد يجد في عملهم هذا تنظيماً رائعاً وإن كان محدوداً للغاية وقاصراً على مشاكل صغيرة تسهل السيطرة عليها، مثل تفاعل سكان جزء البحار الجنوبية البدائيين مع الجنس الأبيض، ولكن ليس هناك شك في أن هؤلاء العلماء قد عالجوا موضوعات وأبحاث هامة عديدة.

إن الخطوات الأولى الهامة في دراسة هذا الموضوع هي تفسير الفكرة، وإبراز أهميتها، واختيار مناسبات قليلة بارزة تلهب الخيال، ورسم وسائل الدراسة في المستقبل (يرى علماء الأنثروبولوجيا أن ردفيلدولينتونوهرسكوفتش قد حققوا هذه الغاية بشكل رائع في كتيب أطلقوا عليه اسم "موجز لدراسة امتزاج الأفكار – ألفوه في عام ١٩٣٦ وطبعوه كملحق كتاب هرسكوفتش).

من الضروري أولاً أن نحدد الموضوع بشجاعة وبخطوط عريضة.. أن هذا اللون من التاريخ يدرس التغيرات التي تحدثها في إحدى الثقافات عناصر أدخلت عليها من ثقافة أخرى.. إنه لا يفحص نمو الفلسفة اليونانية أو تطور الرئاسة الأمريكية لأن كلا منهما يكاد أن يكون أمراً داخلياً بحتاً، ولكنه يهتم بأثر الفلسفة اليونانية في الحضارة العربية، أو باحتمال أن يكون "توازن القوى" الذي يستقر عليه نظام الحكم الأمريكي مثلاً أعلى رومانياً وضعه يوليبوس الفيلسوف المؤرخ اليوناني وصدر إلى المستعمرات الأمريكية عن طريق فرنسا في القرن الثامن عشر.

ويقول لنا علماء الأنثروبولوجيا بعد ذلك أنه يجب علينا أن نفرق بين الأفكار والأشياء، وبين الجوانب المادية والجوانب غير المادية للثقافة، بينما يعتقد المؤرخون والفلاسفة أنه يجدر بنا أن نفرق بين الفنون والمثل العليا. ومع ذلك ستكون هناك حالات كثيرة ذات خط فاصل عريض.. فقد قيل يوماً أن الأشياء المادية يمكن الاستيلاء عليها بسهولة، والأشكال غير المادية بصعوبة كبيرة. ولهذا فقد كان من السهل على الهندي الأحمر أن يستعمل الجياد بدلاً من الكلاب كحيوانات للجر، ولكن كان من الصعب عليه أن يتخلى عن نظامه القبلي. ومن المشاكل الرئيسية التي تواجه الآن أولئك الذين يهتمون بالشرق الأقصى، التأكد من أن المثل العليا الغربية (أحسنها طبعاً) تنتقل إلى الشرقيين مع التكنولوجيا الغربية. ومع ذلك فهناك مصاعب أيضاً، فقد كان الصينيون على استعداد دائماً لقبول البدع الروحية أكثر من استعدادهم لقبول الاختراعات الجديدة والوسائل الجديدة لطهي الطعام وعزق الأرض.

كذلك يجب علينا أن نناقش الوسائل التي أدخلت بها الأفكار الجديدة – بالقوة أو بالإقناع أو بمجرد الجاذبية، وعلى آماد طويلة من الزمن والفراغ، أو بالاتصال الوثيق مثلما كان الحال بين العرب والإسبان.. لقد أشار مستر كروببر إلى طراز عجيب من التغيير الثقافي أطلق عليه اسم "الحافز الإشعاعي". ويحدث ذلك عندما يريد شخص في جماعة أن ينافس نشاطاً معيناً تمارسه جماعة أخرى ويبذل مجهوداً

يكاد يكون مستقلاً عن مجتمعه لتحقيق هذه الغاية.. وبهذه الطريقة اخترع البورسلين في أوربا أثناء القرن الثامن عشر بعد أبحاث كثيرة لا لشيء إلا لينافس ويتساوى مع البورسلين الصيني الذي ظل يصدر إلى أوربا حوالي مائتي عام. ولقد كان من الجائز إلا يصنع هذا الاختراع إطلاقاً لولا هذا الحافز الخارجي.. والأمر نفسه صحيح أيضاً بالنسبة لاختراع سيكوبوا للكتابة باللغة الشروكية التي تتألف من حروف تشبه حروف اللغة الإنجليزية ولكنها تمثل مقاطع في اللغة الشروكية. ولقد استمد سيكوبوا فكرة الكتابة من الأمريكيين، واستمد الأشكال من الحروف الرومانية ثم استخدم الأشكال استخداماً مغايراً.. استخداماً كان يستغرق عدة قرون لو أن مجتمعه أراد الوصول إليه.

وهنا تبرز بعض المبادئ العامة، أحدها أنه يمكن طمس الأفكار بالقوة بينما لا يمكن أن تعلم الأفكار بسهولة وبحيث تستمر إلى الأبد باستعمال القوة.. وثانيها أن أكثر الوسائل كفاية لتحطيم إحدى الأفكار أو مجموعة من الأفكار هي القضاء على البنيان الاجتماعي الذي نعيش فيه وإعادة بناء مجتمع على طابع مغاير مع استبعاد الفكرة غير المرغوب فيها. وبالمثل فإن أحسن وسيلة لغرس إحدى الأفكار، هي أن تجعل المجتمع الذي يستضيفها يهضمها بقدر المستطاع، وذلك بأن نجعلها جزءاً من بنيانه الاجتماعي، فتصبح شيئاً يجب أن يتعلمه كل طفل ويقبله كل راشد كقضية مسلم بها، كما يجب أن يتولى تعليمها الأهالي أنفسهم

أو المبشرون المقيمون في المجتمع دائماً وليس الإخصائيين الزائرون.. ومن ثم فإن من المحتمل أن ينمحي أثر الأفكار الإنجليزية في الهند أكثر مما ينمحي أثر الأفكار الرومانية في بلاد الغال، لأن الرومان اختلطوا بهم بينما لم يختلط البريطانيون بالهنود إلا نادراً.

وعلاوة على ذلك، يجب على من يدرس "هجرة الأفكار" أن يحكم على الشخصيات ويتساءل: من كان الأشخاص الرئيسيون الذين أدخلوا كل فكرة جديدة من الخارج، ومن الذين تزعموا قبولها بداخل المجتمع.. ولسوف يدهشنا أن نجد كيف أن أشخاصاً قلائل يستطيعون التأثير في مجتمع كبير، بشرط أن تكون وسائلهم عالية الكفاية، وقوة إرادتهم مجردة من المرونة. لقد كانت بعثات الجزويت التي غيرت تاريخ العالم تتكون من عشرات قلائل من الرجال.. فكان زعماء الحركة الحديثة في اليابان حوالي مائتين أو ثلاثمائة فقط ولكنهم حركوا الجبال. وهذا هو السبب في أنه – عندما تكون فنون الدعاية جيدة كما هو الحال في العصر الحديث، وعندما تتأرجح القرارات الاجتماعية والثقافية بتأثير عدد قليل نسبياً من الرجال – يجب على المجتمعات العصرية الكبيرة أن تكون على استعداد لمناهضة الدعاة الذين يعملون علناً أو في الخفاء.

(تساءل الفيلسوف الصيني هوشيه: لماذا نجحت اليابان هذا النجاح العظيم في بلوغ مستوى مرتفع من الحضارة في حين أن الصين لم تنجح مثلها؟.. وتساءل أيضاً: لماذا تتغير اليابان تغيراً روحياً رغم

التغيير الغربي الكبير الذي طرأ عليها؟ (لاحظ همجية جيشها والبدع البدائية التي يتمسك بها شعب اليابان)..ويجيب هوشيه على ذلك بأن السبب هو أن اليابان كانت دائماً دولة ذات سيادة يمكن أن تفرض التغييرات فيها من السلطات العليا وتقبل بصفة رسمية، أما الصين فيمكن أن تغير بالحركة فقط منذ أن دمرت نظام مانشو الملكي. وعلى كل حال لقد ألقى هوشيه هذا السؤال وأجاب عليه قبل حدوث الثورة الشيوعية في الصين. فعلينا أن نرى الآن إن كانت السلطة التي تفرض من أعلى ويمارس تنفيذها زعماء من الوطنيين المدربين على فنون الدعاية الأجنبية ستنجح أيضاً في تغيير الصينيين أم لا).

إن على المؤرخ الذي يدرس هذه الأمور أن يقدر أيضاً أهمية وتأثير البدع التي يصفها، وهنا أيضاً يجب أن يكون مستعداً لملاقاة انعدام الانسجام الهائل بين الأهمية الواضحة والتأثير النهائي لكل شيء جديد.. مثال ذلك، أنه سيضطر إلى التمسك بحقائق منها أن المخدر المكسيكي بيوتل **Peyotl** أصبح أساس طقس ديني هام بين القبائل الهندية التي تقطن الجنوب الغربي من الولايات المتحدة، وأن البن العربي كان يوماً منبهاً ثميناً في النشاط السياسي بإنجلترا، وأن التبغ الذي تستورده إنجلترا أصبح الآن عاملاً حيوياً في السيكولوجية الإنجليزية والاقتصاد البريطاني أيضاً.. فإذا كان المؤرخ مستعداً لانعدام التناسق هذا (ولا يتوقع أن يتمكن من وضع "قوانين" لبحثه لعدة سنوات) فإنه

سيمضي في بحث مدى تأثير الأفكار المختلفة المستوردة.. وسيفرق بين الأفكار التي تسربت إلى المجتمع من أحد المداخل ولكنها لم تنتشر إطلاقاً، وتلك التي تنقلت بين عدة مستويات وقبلت على نطاق واسع: عليه أن يحدد البدع التي أثارت معارضة قصيرة الأجل أو طويلة الأمد أو سلبية أو عنيفة، وتلك التي قبلت بلا عناء. كما أن عليه أن يحاول أن يكتشف لماذا نسى الناس بعض البدع وهجروها بمرور الزمن، بينما وطدت بدع أخرى قدمها في المجتمع الذي غزته.

كذلك يجب على المؤرخ الذي يبحث هذه الأفكار (كما قال أحد علماء الأنثروبولوجيا) أن يستخدم "الزمن كبعد". يجب عليه أن يحاول أن يحدد بالدقة اللحظة التي دخل فيها النفوذ الخارجي في الثقافة التي يدرسها ومعدل حركته، ومدى بقائه، والفترة التي بقيتها آثاره الأخيرة بعد سحب هذا النفوذ. وغالباً ما سيضطر إلى مقارنة الماضي بالحاضر، ولن تكون مثل هذه المقارنة في مصلحة الحاضر دائماً.

خذ أمثلة سهلة، ولكنها كثيراً ما تغفل، من ثقافتنا. إن معظم كتاب اللغة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية أيضاً تلقوا تدريباً على اللغة اللاتينية، وكثيرون منهم درسوا اللغة اليونانية أيضاً. بيد أن ميلتون كان أستاذاً أكفأ بكثير من معظم أساتذة الكلاسيكيات في الوقت الحاضر. ولقد حصل شكسبير على محصول من اللاتينية وهو في المدرسة أكثر مما يحصل عليه أغلب الشباب العصري في الكليات.

ومع ذلك فقد مضى في مطالعة الكلاسيكيات مترجمة وبلغتها الأصلية طول حياته الابتكارية. ولم يكن كيتس نابغة لم يتلق تعليماً، إذ كان شاعراً كلاسيكياً مدرباً، وعندما كان تلميذاً ترجم مؤلف فرجيل "أنيد" بالنثر. ولقد نحا فكتور هوجو نحو فرجيل جزئياً، وجزئياً نحو جونيفال الشاعر الهجاء.. وكانت فكرة والت هويتمان عن كيفية الحصول على البهجة هي أن يركب سيارة أوتوبيس مكشوفة ويقرأ مؤلفات هوميروس بصوت عال..وكان ت. س اليوت يعرف لغات كثيرة كما كان رئيساً للاتحاد الكلاسيكي البريطاني. وقد استطاع تنسون أن يحفظ أشعار هوراس الغنائية عن ظهر قلب قبل أن يبلغ العاشرة من عمره.

إن بعض المربين المضللين في الولايات المتحدة وفي عدد قليل من البلاد الأخرى يعتقدون أن كل تغيير هو بالضرورة تقدم، وأن نبذ الشيء الثابت طريقة مؤكدة لتحسين المجتمع. وقد بذلوا قصارى جهدهم للقضاء على تدريس اللغتين اللاتينية واليونانية في المدارس والكليات – ولعل ذلك انعكاس غير شديد لمقاومة السياسة القديمة المضللة التي كانت تنادي بوجوب جعل دراسة اللغات الكلاسيكية إجبارياً.. فماذا ستكون النتيجة؟

إن في استطاعتنا أن نرى تأثير هذا النشاط الآن في انخفاض مستوى الأدب بشكل مؤلم خلال الثلاثين عاماً الأخيرة رغم كثرة المدارس التي أنشئت. ويبدو انخفاض مستوى الأدب في ارتفاع مستوى

الدجل في الأدب، وفي بعض حقول التدريس وفن التعليم، وفي نمو الفكرة المضحكة التي تقول بأن النشاط العقلي بلا تدريب يكفي لتمكين الشخص من تأليف مسرحية أو إلقاء محاضرة أو كتابة قصة.. ولهذا فإن صغار الأدباء يقدمون على تدريس ميلتون أو تأليف كتب من شوسر بدون أن يستطيعوا قراءة الكتب التي تغذى بها ميلتون وشوسر طوال حياتهما. وثم رجال جعلوا من أنفسهم فلاسفة، وراحوا يناقشون آراء أفلاطون وأرسططاليس بغير أن يستطيعوا قراءة مؤلفات أفلاطون وأرسططاليس ومعارضيهما وخلفائهما. إن أنصاف المتعلمين مثل عزرا بوند يكتسبون شهرة كرجال متعلمين. وأسوأ من ذلك كله، أن المستويات الحقيقية لتقدير وفهم الكتب العظيمة آخذة في التلاشي تدريجياً من عقولنا، حتى لقد بدأنا نعتقد أن القصد من هذه الكتب هو التسلية فقط، وأنه ينبغي على مؤلفيها أن يضمنوا جميع أسرارهم كتاباً واحداً وإلا فإننا ننصرف عنهم قائلين أنهم "ليسوا عصريين". ولعلك تلاحظ أن هذا كله يقترن بارتفاع مدرم في الاضطراب الاجتماعي والعقلي، لأنه كلما خويت عقول الناس كلما سهل أمر إشاعة الاضطراب بينهم.. ولعلك لاحظت أيضاً أن الأدب بدأ ينحو نحواً مضللاً ويميل إلى العنف، ومن ثم فمن غير المحتمل أن ينتعش تأليف الكتب القيمة طالما انصرف معظم القراء إلى مطالعة القصص الطويلة منها والقصيرة، ومشاهدة الأفلام السينمائية، وتمثيليات التليفزيون، وربما قراءة كتب التاريخ الشعبية، ولعلك لاحظت أيضاً أن المجلات الثقافية الدورية التي كانت تبيع عشرات الألوف من

النسخ في عام ١٨٩٠ عندما كانت أمريكا لا تزال بلاداً صغيرة فقيرة، قد بدأت تتنحى عن مكانتها للمجلات التافهة المملوءة بالسخافات والصور الخليعة.

إن على المؤرخ الذي يكتب عن الثقافة الغربية أن يحسب حساب هذه التغييرات جميعاً.. فإذا كان ممن تلقوا تعليماً كلاسيكياً فيستشعر الانقباض. عليه أن يتكهن بمجيء عصر أسود آخر، أم لعله سيكون عصر النيون مملوءاً بالراحة والغاز والإعلان، دون أن يشبه الإمبراطورية الرومانية الأخيرة. بيد أن هذا المؤرخ لن يلبث أن يستشعر الانتعاش ويعاوده الأمل، حينما يعلم أن مثل هذه الأشياء حدثت من قبل ولكنها لم تغرق الحضارة، وإن كانت قد جنحت بها إلى الشاطئ الرملي الضحل حتى ارتفع مد التقاليد والتفكير الابتكاري فرفعها من فوق الرمال وانطلق بها مرة أخرى إلى عرض البحر.. سيجد هذا المؤرخ عمله شبيهاً بالعمل العظيم الذي حققه رجال مثل كاسبودوراس الذي مضى في دراسته، ونقل الكتب الثمينة في "شانجري–لاي" بينما كان العالم يجنح أكثر فأكثر إلى الهمجية خارج جدران منزله.. وعلى هذا المؤرخ أن يذكر الكلمات التي قالها واحد من أنبل الكتاب والمفكرين الأمريكيين رالف والدو أمرسون، الذي قال:

"قد تدوم شهرة المؤلفين الشعبيين ليلة، ولكن موسى وهومر سيخلدان إلى الأبد.. فلن يوجد في هذا العالم، وفي وقت واحد، أكثر

من اثني عشر شخصاً يقرأون أفلاطون ويفهمونه – ولن يوجد عدد كاف من الأشخاص الذين يبدون استعداداً لشراء أحد مؤلفاته. ومع ذلك فإن هذه المؤلفات تصل إلى كل جيل لأجل هؤلاء الأشخاص القلائل، وكأنما يرعى الله عز وجل هذه المؤلفات بعنايته.. لقد كتب الخلود والدوام لهذه الكتب دون بذل أي مجهود، سوءا أكان صديقاً أم عدواً. وذلك بسبب جاذبيتها الذاتية أو لأهمية محتوياتها لعقل الإنسان الوفي".

لعلك تقول أن تلك الأفكار سوداء.. وإنها كذلك. وأما أنا فلا أصدق أن الأدب الكلاسيكي والأدب الجيد يعانيان من نزع الموت، ولكني واثق من أنهما عانيا من سلسلة من الحملات العنيفة التي شنها عليهما أناس يعترفون بأنهم معلمون، وأن هذه الحملات، بقدر ما هي عنيفة مخطئة في حكمها، ما زالت مستمرة حتى اليوم.. فإذا تعرضت العلوم لمثل هذا الهجوم العنيف، فمن المحتمل ألا يكون لدينا غير عدد قليل من العلماء في غضون جيل أو اثنين، وأن تقل جداً وسائل الرفاهية التي ننعم بها ووسائل التخلص من الألم التي يغدقها العلم علينا.. وإذا هوجم الفن والموسيقى هجوماً عنيفاً فإننا سرعان ما نفقد روائعها ولا يتبقى لنا إلا التفاهات والنكرات من المؤلفين والملحنين باعتبارهم خلفاء لباخ ورمبراندت.. وإذا استمر اضمحلال الأدب – ليس فقط الأدب اليوناني واللاتيني وإنما الأدب الرفيع بجميع اللغات بما فيها لغتنا – فيمكننا أن نتوقع أن عدد الشعراء المجيدين، وكتاب التمثيليات

والفلاسفة ورواة القصص والنقاد والمعلمين الأكفاء الذين سيظهرون بيننا سيتضاءل ويتضاءل.. ولقد قال لي أحد زملائي الذين أعجب بهم تماماً، وكان من قبل أستاذي ثم أصبح أخيراً صديقي.. قال لي ذات مرة بأنه مقتنع أن الهدف الذي كان يسعى إليه من ثورة في التعليم هو "أن يجعلوا كل شخص آخر على مثل حظهم من الجهل، فهل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟ وإذا كان صحيحاً هل تصدق أنه من الجائز أن ينجحوا في بلوغ هذا الهدف؟

هناك سؤال آخر يتعلق بدراسة حركة الأفكار، ولعله أصعب الأسئلة جميعاً.. وهذا السؤال هو: ما هي الدوافع التي حفزت الناس إلى قبول فكرة غير مألوفة؟ لقد استطاع علماء النفس والاجتماع أن يصلوا إلى بعض هذه الدوافع.. وليس من شك في أن الخوف هو أكثرها وضوحاً.. فالخوف من تعرض بلادهم للغزو هو الذي دفع بعض المتعلمين اليابانيين إلى الاهتمام بنظام العالم الخارجي وذكاء أبنائه.. وكان الخوف هو الذي جعلنا حديثاً نسعى إلى تفجير الذرة.. لقد قال ثاكايداديس إن الحرب معلم عنيف، ولكني أقول إن الخوف معلم سريع كفء.. ولقد تقدم التفكير الإنساني تقدماً واسع الخطى عن طريق الخوف.

وثم دافع آخر هو الكبرياء، أي الرغبة في الكرامة والاعتبار.. إذ يبدو أن إلمام الشخص بأفكار نشأت خارج دائرته الخاصة غالباً ما يدل على أن هذا الشخص يملك عقلاً أكبر وأكثر حساسية مما يملكه

زملاؤه – مثل امتلاك أثاث أجنبي أو ملابس مستوردة. وقد يكون هذا الدافع سليماً، إذ أن بعض – إن لم يكن كل – المجتمعات ضيقة محدودة للغاية، ولكنه (أي الدافع) قد يكون أيضاً وضيعاً أنانياً حتى ولو كانت نتائجه حسنة.

والدافع الثالث هو الشهية، أي الرغبة في المتعة والراحة.. لاحظ كيف انتشر التدخين ومضغ اللبان في جميع أرجاء العالم. لاحظ التغيير الكبير الذي طرأ على عادات فرسان الحروب الصليبية عندما رأوا الثياب الفاخرة التي كان الشراكسة ينعمون بها والأثاث المريح الذي كانوا يستمتعون به.

وهناك دوافع أخرى يعتبرها علماء النفس أقل أهمية، ومع ذلك فإنها أيضاً ذات تأثير.. وأحدها الاهتمام باللعب: الألعاب النشطة والألعاب التي تحتاج إلى استعمال الذهن.. فكر كيف انتشر لعب الشطرنج والجولف والورق في جميع أنحاء العالم..وفكر أيضاً في قصص الرحلات والقصص العجيبة، وما يبديه الناس من رغبة في الزينة سواء أكانت في الملابس أو الفن.

وليس من شك في أن رغبة الإنسان في العلم من أجل العلم، لا من أجل الحصول على الثراء أو تأمين سلامته أو الحصول على منفعة أكثر من الحياة المادية، لا شك في أن هذه الرغبة أهم بكثير، وأعظم دواماً من الخوف أو الكبرياء أو الشهية..

ولقد بدا أرسططاليسميتافيزيقيته بقوله:

"من الطبيعي أن جميع الناس يرغبون في الحصول على المعرفة".

وعلى الرغم مما نشعر به من انقباض بسبب انحطاط الثقافة، وبسبب التأثيرات القاتلة للنظريات التعليمية الزائفة، فإننا نستطيع دائماً أن نشعر بالعزاء كلما فكرنا في هذه الحقيقة.

دعنا نستعرض الآن كل ما مر بنا من حديث.. لقد بدأنا بأن قلنا بأن في الإمكان كتابة التاريخ بعبارات من حركة الأفكار كذا بعبارات من السياسة والاقتصاد. وضربنا الأمثلة على هذا الرأي، الحياة السياسية والاجتماعية، بذكر تاريخ التغييرات العظيمة التي حدثت في اليابان وتركيا وروما وإسبانيا وأمريكا الإسبانية الهندية، ثم في الدين والفن بذكر الأعمال الجليلة التي حققها الفنانون اليونانيون الذين ترجموا التفكير البوذي واستخدام المسيحيين للرموز الوثنية، وبعثات المبشرين البوذيين والجزويت.. وتحدثنا بعد ذلك عن الأثر الكبير لحركة الاختراعات من بلد إلى آخر، وضربنا لذلك أمثلة بالورق والمحاصيل الزراعية والصور المتحركة والراديو.

وانتهينا بقولنا إن المؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس هم الذين أوجدوا هذه الطريقة التي يجب أن ينظر بها إلى التاريخ.. ووصفنا بعض الطرق التي يجب أن تستخدم في الدنو من هذه المادة، وهي ليست "طرقاً علمية" وإنما هي طرق منطقية؛ ومع المنطق يجب أن يوجد

الخيال والتقدير الأخلاقي لأن الناس يحبون القوة ولهم شهية، كما أنهم يتذوقون الجمال ويعجبون بالروعة، ولقد ملأوا العالم بالمدهشات والأعاجيب عن طريق إشراك الآخرين في إنتاج عقولهم.

فإذا قبلنا هذا القول، ونعني به أن التاريخ يصنع جزئياً بواسطة حركة الأفكار، فإننا نرى ما بعد ذلك.. إن فترة تقدم الحضارة هي فترة تنتقل فيها الأفكار بحرية من عقل إلى عقل ومن بلد إلى آخر، ومن الماضي إلى الحاضر.. أما العصر البربري، والبلد الهمجي فهما اللذان يحاولان شل الاتصال، وحبس الأفكار، ومعاملتها كما لو كانت سحراً – إما بتعمد حبسها عن الكثيرين، أو عن طريق سخرية الكثيرين منها بلا مبالاة. وليس من شك في أن العقل المغلق علامة على الهمجية.. إنه يرفض قبول الأفكار من "الأجانب" ولا يقبل فكرة مستمدة من الماضي.

إن للمتوحشين آفاقاً ضيقة، أما المتمدينون فيرون كل ما حول العالم، كما يرون الماضي البعيد، ولعلهم يرون أيضاً شيئاً من المستقبل القريب.

إن ما يشجعنا على النظر إلى التاريخ من هذه الزاوية، هو أنها تعلمنا الأمل.. أنها ترينا كيف أنه من الصعب قتل فكرة حسنة، فالفكرة الجوهرية تشق طريقها عبر الصحاري، والغابات، وفوق المحيطات وبين حواجز اللغات، وكثيراً ما تعيش بعد أفظع الحروب والتدميرات. ومن الجائز أن تظل خاملة عدة قرون، ولكنها لا تموت، وإنما تنتعش وتحيا مرة أخرى،

فتشق طريقها وتعبر كل ستار حديدي، وتنتشر، وتتكاثر، وتحقق نتائج لا تشبهها في الصفة والقوة.. ولقد قارن السيد المسيح ذات مرة أعظم الأفكار "بحبة الخردل" التي هي حقاً أصغر الحبوب، ولكنها حين تنمو تصبح أعظم الأعشاب، ثم تصبح شجرة فتجيء الطيور وتتخذ لها أعشاشاً بين أغصانها. وهكذا الحال أيضاً بالنسبة للأفكار الحسنة.. إنها تعيش أكثر مما يعيش الأفراد، ولو كانوا أصحابها.. وهي تعمر أطول من المجتمعات.. إن لها قوة مدهشة لا يمكن التنبؤ بها، من حيث قدرتها على البقاء ومعاناة التغيير، بينما تظل محتفظة بحيويتها. وعندما تتعقب تاريخ إحدى هذه الأفكار، فمن السهل علينا أن نرى لماذا قيل أن العقل هو الصفة التي يشاطر الإنسان فيها الله الحي الباقي عز وجل.



الفهرس